مدرسة الحج العظمى

ح رقية محمد المحارب ،١٤٣٢هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
المحارب، رقية محمد
مدرسة الحج العظمى وكيف نستشعره. /رقية محمد المحارب.
الرياض ١٤٣٢هـ
ص؛١٢×١٧ سم
ردمك: ٥-٨٦٨٢-٠٠-٦٠٣-٩٧٨
١- الحج ٢- الأدعية والأوراد أ. العنوان
ديوي ٢٥٢,٥ ١٤٣٢/١٠٢٥٢

رقم الإيداع ١٤٣٢/١٠٢٥٢
ردمك: ٥-٨٦٨٢-٠٠-٦٠٣-٩٧٨

التصميم والإخراج الفني

ONYX
Quality & Commitment
onyx.egypt@hotmail.com
walidsiry@hotmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

هـذا الكتـاب دقـات قلـب خافقـة، ومشـاعر متدفقـة عايشـتها مؤلفتـه، فبعثتهـا إليـك أيهـا الحـاج مؤصلـة بأصولهـا تسـتحث الخطـى، وتبعـث الرغبـة؛ ليكـون النسـك في القلـب، ممزوجـاً بالشـعور، مسـيطراً عـلى الإحسـاس مـن لحظـة انبعـاث النيـة إلى سـاعة التلـذذ بالذكـرى الجميلـة بعـد العـودة.

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله سيد الحاج والثاج.

وبعد:

فإن الكتب في الحج كثيرة، طويلة وقصيرة، حكم وأحكام، تنبيهات وفوائد، فصول وأقسام، لكنني هنا أكتب عن الحج كمدرسة تعلمت فيها دروساً وعبراً، ولي فيها وقفات وتأملات لآيات وأحاديث، وأحوال وأفعال وأقوال، قد نؤديها ونحن في غفلة تامة! لا نتأملها ولا نستشعر عبوديتنا بها! فيكون همّ الواحد منا قضاء النسك! ولا يعنيه بأي شيء عاد!

هل عاد بذنب مغفور وقلب مجبور؟!

أم عـاد بأقـدام مكـدودة وأجسـاد مهـدودة، وأموال مبددة؟!

وربـما عـاد بذنـوب أكثـر ممـا بهـا غـادر و ارتحـل، فيكـون حظّـه مـن حجـه مـا فيـه قـال الله تعـالى: ﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ٢٥﴾ [الحج: ٢٥].

أخي الحاج!

أختي الحاجة!

قبل أن تنوي الحج قرر لم تريد الحج؟

وإذا قـررت أنـك تريـد مغفـرة الذنـوب، ومضاعفـة الحسـنات، وجسـداً طاهـراً مـن الأدران، وقلبـاً نقيـاً مـن الحسرات، وميزانـاً ثريـاً بالحسـنات، ولسـاناً خليـاً مـن الزفـرات إلا بـلا إلـه إلا رب الأرض والسـماوات، فعليـك أن تعـزم عـلى حـج مـبرور، تجمـع فيـه قلبـك عـلى مـرادك ومطلبـك، وتفيـض فيـه دمعـك، وتسـبله

سـحًّا؛ ليغسـل كلّ حوبـة، وتهريـق كلّ دم اختلـط بـه الشـيطان ودرّنـه؛ حتـى بنـى بـه اللحـم والعظـم، وتبدلـه دمـاً قـد مازجـه الخشـوع حتـى نقـاه، وعظـماً قـد أقامـه الخضـوع حتـى قـواه.

فيـا لله كـم سـتكون الـروح حينهـا في راحـة وطمأنينـة! وترجـع فيـك وليـدا كأنـما خـرج للتـو مـن بطـن أمـه! يمتلـئ نضـارة وحيويـة!

هل تريد ذلك حقاً، وتعد بالبحث عنه صدقاً !

هيـا اربـط جأشـك وطِـرْ بقلبـك إلى هنـاك، حيـث نتأمـل معـاً الحـج بـكل مـا فيـه مـن نسـك ومواقيـت، ومعـالم وعـوالم، وأقـوال وأفعـال، وحـركات وسـكنات، ودمعـات وزفـرات، وبـركات ورحمـات، فـإلى هنـاك!

معنى الحج

الحـج لغـة: مصـدر قولهـم حـجّ يحـجّ، مأخـوذ مـن مـادّة (ح ج ج) الّتـي تـدلّ عـلى أربعـة معـان:

الأول: القصـد، وكلّ قصـد حـجّ، والثّـاني: الحِجّـة وهـي السـنة، والثّالـث: الحجـاج- (بفتـح الحـاء وكسرهـا)- وهـو العظـم المسـتدير حـول العـين، والرّابـع: الحجحجـة بمعنـى النكـوص.

والحـجّ المذكـور هنـا إنّـما يرجـع إلى المعنـى الأوّل، وهـو القصـد أو القصـد للزّيـارة، يقـال: ورجـل محجـوج أي مقصـود، وحجّـة يحجّـه حجّـا: قصـده.

وقـد حـجّ بنـو فـلان فلانـاً إذا أطالـوا الاختـلاف إليـه. قـال المخبّـل السّـعديّ:

وأشـــهد مـــن عـــوف حلـــولاً كثـــيرة

يحجّـــون ســـبّ [1] الزّبرقـــان المزعفـــرا

قـال ابـن السّـكّيت: يكثـرون الاختـلاف إليـه. هـذا الأصـل، ثـمّ تعـورف اسـتعماله في القصـد إلى مكّـة للنّسـك والحـجّ إلى البيـت خاصّـة. تقـول: حججـت البيـت أحجّـه حجّـاً إذا قصدتـه.

ويـوم الحـجّ الأكـبر: هـو يـوم النّحـر، قصـد بيـت اللهّ إقامـة للنّسـك.

وقـال الجرجـانيّ: قصـد لبيـت اللهّ تعـالى بصفـة مخصوصـة في وقـت مخصـوص بشرائـط مخصوصـة. وقـال الحافـظ في الفتـح: الحـجّ في الـشّرع: القصـد إلى البيـت الحـرام بأعـمال مخصوصـة.

وقـال العينـيّ: الحـجّ قصـد إلى زيـارة البيـت الحـرام عـلى وجـه التّعظيـم بأفعـال مخصوصـة [2]

(١) السّب- بكسر السين: العمامة والمراد شخص الزبرقان.

(٢) ينظـر: التعريفـات للجرجـاني (٨٢)، وفتـح البـاري (٣/ ٣٧٨)، وعمـدة القـاري

وكل التعريفات تتفق على القصد، ولا شك أن القصد معناه أن يريد ما شرع الله تعالى من البقاع والأماكن لا غيرها على وجه الخصوص في الزمن الذي حدده الشارع، وفي هذا من المعنى قصد العبودية المجردة خاصة مع غياب الحكمة والعلة، لا سيما فيما لا يفهم معناه كرمي الجمار والوقفات والبيات والالتزام بالبقاء متحيناً أوقاتاً محددة، وفي كل ذلك بقصد الموافقة للمأمور به وتحريه على وجه الدقة.

بين يدي الحج..

قبل أن تحج عليك أن تهيئ قلبك وجوارحك ونفسك وروحك ولسانك للحج فتعود قلبك على التفكر، وجوارحك على الخضوع، ونفسك على الانقياد، وروحك على الرقة، ولسانك على الذكر،

للعيني (٩/ ١٢١)، ودليل الفالحين لابن علان (٤/ ٧٣).

وعليك أن تستحضر أنك مدعو من رب الأرباب وملك الملوك الذي بيده حياتك وموتك ورزقك وعافيتك يمنحك إن شاء! ويسلبك إن شاء! فتوجه إليه وكلك إيمان به وثقة، واعتماد عليه، فلا تلتفت لسواه ولا تقصد إلا إياه! واستحضر في كل ذلك ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾[الفاتحة: ٥].

وتذكر وأنت تعدّ نفسك للحجّ أن القدوم على العليم الطيب الذي لا يقبل إلا طيباً؛ فأطب نفقتك واخترها من أحسن مالك، وإياك والبخل على حجّك فإن خير ما أنفقت فيه الأموال الجهاد في سبيل الله، وقد قال ﷺ في الحج «هو من سبيل الله»[1] فتذكر أن كل نفقة تنفقها على نفسك أو أهلك وأنت تُخَلِّفُهم أو تصحبهم هي من أعظم القربات؛ فلا توع ولا تحص؛ فيحصى عليك.

(١) «الحج والعمرة من سبيل الله» رواه أحمد برقم ٢٧٣٢٧ وصححه الألباني.

واعـزم عـلى الصدقـة هنـاك وبـذل المعـروف بقـدر طاقتـك وجـودك، وإذا كان الجـود في رمضـان مندوبـا إليـه، فالجـود حيـث تعظـم الحاجـة أولى وطلبـه آكـد.

ولا تخرجـن وعليـك ديـن لأحـد، أو في رقبتـك مظلمـة لمخلـوق، فإنهـا لـن تـزال بـين عينيـك تقسي قلبـك، تنجَهـك عـن خالقـك، تُـزري نفسُـك عليـك بهـا، كلـما رفعـت يـدا بالحاجـة إلى مـولاك، ومـا أسرع مـا يحضرهـا الشـيطان حينهـا لتثقـل عـن الدعـاء ويهيّج عليـك اليـأس! وإن كان قبـلُ لا يخطرهـا ولـو خطـرت لاسـتمرأها وحسـنها! فانتبـه لذلـك كلـه واقطـع عليـه الطريـق!

قـال الغـزاليّ- رحمـه اللهّ- في الإحيـاء: «إنّ الحـجّ مـن بـين أركان الإسـلام ومبانيـه عبـادة العمـر وختـام الأمـر وتمـام الإسـلام وكـمال الدّيـن. فعـلى كلّ حـاجّ ومعتمـر أن يبـدأ بالتّوبـة، وردّ المظـالم، وقضـاء الدّيـون،

وإعـــداد النّفقــة لــكلّ مــن تلزمــه نفقتــه إلى وقــت الرّجــوع، ويــردّ مــا عنــده مــن الودائــع، ويســتصحب مــن المــال الحــلال الطّيــب مــا يكفيــه لذهابــه وإيابــه، كــما ينبغــي أن يلتمــس رفيقــا صالحــاً محبّــاً للخــير معينــاً عليــه، إن ذكــر اللهّ أعانــه، وإن جبــن شــجّعه، وإن عجــز قــوّاه، وإن ضــاق صــدره صــبّره». [1]

وفي هــذه الأزمــان تســير قوافــل الحجيــج في حمــلات متفاوتــة في الخدمــات. وعامــة الحجيــج يســألون عــن المطاعــم والمراتــب ولا يســألون عــن المرافــق والمواكــب! ويغفلــون عــن قضيــة مهمــة وهــي أن المــدة قصــيرة وأن الــزاد المطلــوب هــو زاد التقــوى لا المطاعــم و لا المشــارب، وإن كان ذلــك مطلبًــا فإنــه لــن ينقــص صاحبــه، ونحــن في تــرف وبحبوحــة مــن العيــش والــرزق، والبلــد الحــرام يجبــى إليــه ثمــرات كل شيء

(١) انظر: إحياء علوم الدين للغزالي (١/ ٢٣٩- ٢٤٧).

رزقاً من لدن الجواد الكريم! ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾ [البقرة: ١٩٧]، ولو تأملنا لفظ (الجباية) التي عبر بها القرآن عن ورود الرزق للبيت الحرام ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴿٥٧﴾﴾ [القصص: ٥٧] لعلمنا أنها قسرا تأتي من حكم الله على الخلق لا خيار لهم فيها ولا يملكون لها دفعا.

وهذه الآية غاية في البيان على قصرها! فكأن السائل يقول في نفسه: ألست أقصد الله تعالى، وقد أمرني بالتوكل عليه، فهل أجمع زادا، وقد تكفل لي برزقي؟

قد يظن من لا بصيرة له بفهم ولا علم أن الله يأمر بهذا؛ فكان الجواب ﴿وَتَزَوَّدُواْ﴾ لا تذهبوا صِفر اليدين! فالرحلة طويلة وشاقة، ويلزم لها زاد، والناس يأتون من كل فج عميق، لا يعرف بعضهم

بعضاً، ومشغول كل واحد بنفسه، فالأحرى أن يتزود كل واحد بفضل من مال وطعام وكساء.

والزاد مأخوذ من الزيادة، وعليه فينبغي للحاج أن يتزود بما يزيد عن حاجته؛ ليعود به على صاحب الحاجة من أصحابه ورفقائه في الحج، لا سيما وهم يشدون ويرحلون في البراري، بعيدا عن أماكن الخدمة، فمنهم من يحتاج زيادة اللقمة، ومنهم من يحتاج زيادة الكسوة أو النعل أو الفرش، فمن كان عنده فضل فليأخذه معه للحاجة، فخير الصدقة والنفقة حيث ثمّ!

ولكن مع ما يتصوره العقل من فضل الزاد وحاجته - مع التصور للرحلة الشاقة- يبقى خير ما يتزود به العبد التقوى! فكما دعاك الله تعالى إلى أن تتزود زادا يمنعك من مسألة الناس، ويقطعك عن الشغل بطلب حاجات نفسك، ويوقفك على

التفـرغ الكامـل بقلبـك وجوارحـك عـلى الحاجـة لله تعـالى، فـلا تسـأل إلا هـو ولا تسـتعين بسـواه!

لا شـك أنـه أيضـا قـد دعـاك لمـا هـو أفضـل مـن ذلـك أن تتـزود بـزاد لقلبـك يمنعـك مـن الشـغل بغـيره! وكأن الله تعـالى يقـول لـك، امـلأ يـدك مـن مـال يغنيـك، واملأ قلبـك بتقـوى تدنيـك مـن مقـام ربـك! فـلا يعمـر قلبـك غـيره ولا تنشـغل بسـواه!

ولا شـك أنـه يدخـل في ذلـك التـزود بالعلـم النافـع لرحلتـك، وخاصـة الفقـه الأكـبر علـم الخشـية والمعرفـة اليقينيـة بـالله العظيـم بـكل أسـمائه وصفاتـه!

ويدخـل في ذلـك التفقـه في مسـائل الحـج ولوازمـه بحيـث تـأتي بـه على أكمـل وجـه، وتقـصر عن السـؤال مـا اسـتطعت لذلـك سـبيلا ! فكثـير مـن النـاس لـو أرادوا البعثـة لبلـد سـألوا عـن قوانـين أهلهـا، ومـا ينبغـي ومـا لا ينبغـي؛ لئـلا يقعـوا في الحـرج والخطـأ؛

فيستحيون من الغريب، ولا يستحيون من الله! والله أحق أن يستحيا منه من الناس. فالله المستعان!

ولما كان توفير الخدمات للحجيج مطلباً ملحاً وضرورة لا يمنع منها النسك سواء في السقاية أو الإطعام أو توفير ما يحتاجونه، أو يتمولونه؛ أباح الله تعالى لهم ذلك، ونفى عنهم الجناح، ولا يتنافى ذلك مع العبادة ولا سلامة القصد، وإن حصلت به منافع مالية أو غير ذلك؛ لذا قال سبحانه: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨] وسماه الله فضلاً؛ لأنه تفضّل به ابتداء إذ أعطاه، وتفضّل به انتهاء إذ أباحه لكم في يوم قصدتموه فيه!

وما زلتم تطلبون لأنفسكم وتبتغون، والفضل الأعظم الذي يغيب عن العالمين فهمه هو فضل هدايته لك، وامتنانه عليك، إذ أقدمك عليه

ودعـــاك إليـــه، فكنـــت في وفادتـــه في الدنيـــا، وهـــذا مشـعر بوفادتـك عليـه في الآخـرة. لا حرمنـا الله وإيـاك تلـك الوفـادة!

تعلّق القلوب بالحج!

حين تبدأ الأهلّة بالقرب، تدنو معها الأشواق لربها وخالقها، فتثور النفوس المؤمنة، وتهفو للحج، ولا تذكر فيه مشقة المسير، وحر الرمضاء، وشدة الكظيظ، بل تذكر هفو القلوب، وزفرات الصدور، ودمعات العيون، ودعوات صادقات، ونفحات الإيمان التي كانت تعانق القلوب في أحيان متفرقة، فما الطيف إلا طيف هاتيك الليالي المقمرات، في منى والجمرات والحرم، وما المشاعر إلا بالمشاعر معلقة.. تطير قلوب المؤمنين إليها، لها حنين وأنين أشواق المحبين المخبتين.

والعجب أن المكثرين من الحج لا يشبعون، بل يزدادون فيه رغبة! وله حباً! فيا لله إذ قال: ﴿ وَإِذْ

﴿جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: ١٢٥] ويا لتلك الدعوة الصادقة من قلب الأمة إبراهيم عليه السلام: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

فهل تجد أفضل دلالة من كلمة مثابة؟ ومثابة تعني مرجعا تذهب إليه وتعود.. ولذلك فإن الذي يذهب إلى بيت الله الحرام مرة يحب أن يرجع مرات ومرات.. إذن فهو مثابة له؛ لأنه ذاق حلاوة وجوده في بيت ربه، ينظر إلى الكعبة فيذهب كل ما في صدره من ضيق وهم وحزن.

ومن رحمة الحق سبحانه أن الدنيا تختفي من عقل الحاج وقلبه؛ لأن الحجيج في بيت ربهم.. وكلما كربهم شيء أو أهمهم شيء توجهوا إلى ربهم وهم في بيته فيذهب عنهم الهم والكرب.. ولذلك فإن الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: ٣٧].(١)

(١) تفسير الشعراوي ٣٤٣ بتصرف

فمع كل الصعوبات، إلا أن قلوب المحبين تثوب إلى البيت ومواقف الملبين! وكأنها تتلذذ بالتلبية وتنعم بيوم الجمع وكل محطات النداء التي ناداها الحبيب إليها، وهي ترى العبرات تسكب حباً وخوفاً وهي تسمع الأصوات شجيةً مبحوحةً من التضرع والابتهال.

فتبذل لذلك كل غال، وترقى له كل عال!

ولذا هاجت القلوب لتلك البقاع، فأنشد الواعظ الفقيه مجد الدين محمد بن أبى بكر بن رشيد البغدادى رحمه الله في قصيدته الرائعة المطولة في وصف الشوق لبيت الله تعالى:

أيا عذبات البان من أيمن الحمى

رعى الله عيشاً في رباك قطعناه

سرقناه من شرخ الشباب وروْقه

فلما سَرقنا الصفو منه سُرقناه

وجـاءت جيـوش البـين يقدمهـا القضـا
فبــدد شــملاً بالحجــاز نظمنــاه
حــرام بـــذي الدنيـــا دوام اجتماعنـــا
فكــم صرمــت للشــمل حبــلاً وصلنــاه
فيــا أيــن أيــام تولــت علـــى الحمـــى
وليــل مــع العشــاق فيــه سهرنــاه
ونحـــن لجيـــران المحصّـــب جيـــرة
نــوفّي لهــم حســن الــوداد ونرعــاه
ونخلــو بمــن نهــوى إذا رقــد الــورى
ويجلــو علينــا مــن نحــبّ محيــاه
فقـــرب ولا بعـــد وشمـــل مجمـــع
وكأس وصــال بيننــا قــد أدرنــاه
فهاتيـــك أيـــام الحيـــاة وغيـرهـــا
ممــات فياليــت النّــوى مــا شهدنــاه
فيــا مــا أمــرّ البيــن مــا أقتــل الهــوى
أمــا يــا الهــوى إن الهنــا قــد سُلبنــاه

فـــو الله لـــم يُبـــق الفـــراق لـــذاذةً

فلـــو مـــن سبيـــل للفـــراق فرقنـــاه

فأحبابنـــا بالشـــوق بالحـــب بالجـــوى

لحرمـــة عقـــد عندنـــا مـــا حللنـــاه

لحـــقُّ هوانـــا فيكـــم ووادنـــا

لميثـــاق عهـــد صـــادق مـــا نقضنـــاه

وأنشد عبدالرحيم البردعي :

يـــا راحلـــين إلى منـــى بقيـــادي

هيجتمـــوا يـــوم الرحيـــل فـــؤادي

سرتـــم وســـار دليلكـــم يـــا وحشـــتي

الشـــوق أقلقنـــي وصـــوت الحـــادي

وحرمتمـــوا جفنـــي المنـــام ببعدكـــم

يـــا ســـاكنين المنحنـــى والـــوادي

ويلـــوح لي مـــا بـــين زمـــزم والصفـــا

عنـــد المقـــام ســـمعت صـــوت منـــادي

ويقـــول لي يـــا نائـــماً جِـــدّ الـــسُرى
عرفـــاتِ تجلـــو كل قلـــب صـــادي
مـــن نـــال مـــن عرفـــاتَ نظـــرَة ســـاعة
نـــال الـــسرورَ ونـــالَ كلَ مـــراد
تـــالله مـــا أحـــلى المبيـــتَ عـــلى منـــى
في ليـــلِ عيـــدٍ أبـــركِ الأعيـــادي
ضحَّـــوا ضحاياهـــم فَسَـــال دماؤهـــا
وأنـــا المتيـــم قـــد نحـــرت فـــؤادي
لبســـوا ثيـــاب البيـــض شـــاراتِ اللقـــا
وأنـــا الملـــوّع قـــد لبســـت ســـوادي
يـــاربّ أنـــت وصلتهـــم صلنـــي بهـــم
فبحقهـــم يـــا رب فُـــكّ قيـــادي
فـــإذا وصلتـــم ســـالمين فبلغـــوا
منـــي الســـلامَ أُهيـــل ذاك الـــوادي
قولـــوا لهـــم عبـــدُ الرحيـــم متيـــم
ومفـــارقُ الأحبـــابِ والأولاد

صــــلى عليـــك الله يـــا علـــمَ الهــــدى

مــا ســـار ركـــبٌ أو ترنّـــم حـــادي

وعـلى جانـب آخـر وقـف قـوم بـين يـدي الحـق تعـالى، لم يكتـب لهـم المسير إلى هـذا الموقـف العظيـم، هزهـم الحـب والشـوق إلى لقـاء الله ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ﴾[البقرة: ١٦٥]، كـما قـال الإمـام الغـزالي رحمـه الله تعـالى: «فالشــوق إلى لقـاء الله عــز وجـل يُشَـوِّقُه إلى أسـباب اللقـاء لا محالـة، هـذا مـع أن المحبّ مشـتاق إلى كل مـا لـه إلى محبوبـه إضافـة، والبيـت مضـاف لله عـز وجـل، فبالحـري أن يشـتاق إليـه لمجـرد هـذه الإضافـة، فضـلاً عـن الطلـب لنيـل مـا وعـد عليـه مـن الثـواب الجزيـل»[1].

وهـذا الحب والشـوق المتأجـج في القلوب لا تسـكن جَذوتُــه إلا بمُشَــاهَدٍ يوجّــه المحــب إليــه أشــواقَه،

(١) إحياء علوم الدين (١/ ٢٦٧).

ويقضي به حنينه ويذَكِّرُه بالمحبوب سبحانه. وإذ قد منعهم العذر عن شدّ رحال الأجساد، توجهت قلوبهم وأرواحهم للقاء محبوبهم، وتعلقت بالبيت والمشاعر، فعظموها كما أمر الله ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الحج: ٣٢]، كلما ذكر لهم البيت والمشاعر حنوا، وكلما تذكروا بعدهم بكوا وأنوا، ويحق لمن رأى الواصلين وهو منقطع أن يقلق، ولمن شاهد السائرين إلى دار الأحبة وهو قاعد أن يحزن، غبطة لمن وصلهم الله لا حسدا، لسان حالهم يقول:

لله در ركائب سارت بهم
تطوي القفار الشاسعات على الدجى

رحلوا إلى البيت الحرام وقد شجا
قلب المتيّم منهم ما قد شجا

نزلوا بباب لا يخيب نزيله
وقلوبهم بين المخافة والرجا

وما أرق وأجمل قول الشاعر:

ألا قل لزوار دار الحبيب
هنيئا لكم في الجنان الخلود
أفيضوا علينا من الماء فيضاً
فنحن عطاش وأنتم ورود

والمتخلّف لعذر لا شك أنه شريك للسائر في الأجر، ففي صحيح البخاري عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان في غزاة فقال: «إن أقواماً بالمدينة خلفنا ما سلكنا شعباً ولا وادياً إلا وهم معنا فيه حبسهم العذر»[1]. ورحم الله ابن العريف إذيقول:

شَدّوا المطيّ، وقد نالوا المنى بمنى
وكلهم بأليم الشوق قد باحا
سارت رواكبُهم تَنْدى روائحها
طيباً بما طاب ذاك الوفد أشباحا

(١) أخرجه البخاري ٢٨٣٩.

يـــا واصلـــين إلى المختـــار مـــن مـــضرٍ
زرتـــم جســـوما وزرنـــا نحـــن أرواحـــاً
إنـــا أقمنـــا عـــلى عـــذر وعـــن قـــدر
ومـــن أقـــام عـــلى عـــذر كمـــن راحـــا

وقال آخر:

يـــا ســـائرين إلى الحبيـــب ترفقـــوا
فالقلـــب بـــين رحالكـــم خلّفتـــه
مـــالي ســـوى قلبـــي وفيـــك أذبتـــه
مـــالي ســـوى دمعـــي وفيـــك سَـــكَبْته

فالحـــج فريضـــة جمعـــت في طياتهـــا كل الفرائـــض؛ ففيهـــا كلمـــة التوحيـــد والإقـــرار، وفيهـــا الصـــلاة، وفيها الصيـام لمـن لم يجـد الهـدي، وفيهـا النفقـة، وفيهـا الطـواف والعمـرة. والجهـد المبـذول بـكل كلفـة ضرب مـــن الجهـــاد؛ لـــذا كان الحـــج مدرســـة الدنيـــا، ومـــن أجـــل ذلـــك فمـــن تخـــرج منهـــا حـــاز كل الفضائـــل، ولعلـه لأجـل ذلـك كانـت آخـر مـا فـرض مـن أركان

الإسلام وشرائعه، فقد فرض في السنة العاشرة للهجرة.

قال الشيخ ابن عثيمين: «آخر ما فرض من أركان الإسلام الخمسة حيث لم يفرض إلا في السنة التاسعة أو العاشرة؛ لأن مكة قبل ذلك كانت تحت ولاية الكفار، وإذا كان الكفار قد منعوا النبي ﷺ من أداء العمرة فكيف يمكن أن يحجّ والسلطة فيها للكفار؟ فكان من حكمة الله عز وجل تأخير فرض الحج إلى السنة التاسعة أو العاشرة»[1].

قال الشيخ صالح الفوزان: «والحكمة في تأخير فرضية الحج عن الصلاة والزكاة والصوم؛ لأن الصلاة عماد الدين، ولتكررها في اليوم والليلة خمس مرات، ثم الزكاة لكونها قرينة لها في كثير من المواضع، ثم الصوم لتكرره كل سنة»[2].

(١) لقاءات الباب المفتوح ٢/ ١٧٧

(٢) الملخص الفقهي ص٣٩٨.

أثناء الرحلة..

يكاد يشغلنا ضجيج المطارات، وحفيف طرقات السيارات، وتفقد الأولاد وبعث الرسائل للأحباب والأقراب، فنغفل عن الوصية التي أمرنا بها؛ لقول النبي ﷺ: «ما حق امرئ مسلم، له شيء يوصي فيه، يبيت ليلتين؛ إلا ووصيته مكتوبة عنده»[1].

فينبغي لمن أراد المسير أن يكتب وصيته ويودع أهله ويستشعر أنه لن يعود! وفي ذلك من الفوائد تحقيق العبادة المأمور بها، واستحضار قصر الدنيا وسرعة تقلبها، ويستحضر الخلاص من حقوق الناس وينظر إلى عياله الذين ودعهم، وكيف سيكون حاله بعدهم، وذلك له خير واعظ فقد

(١) أخرجه البخاري ٢٧٣٨، ومسلم ١٦٢٧

وعظ الله به وهو خير الواعظين: ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ ﴾ [النساء: ٩]، فنظرك لولدك تتركه من خلفك وأنت مسافر يدمي قلبك ويبعثك على صدق القصد؛ ليحفظ الله غيبتك، ويحسن لعيالك من بعدك، فتستودعهم الله «أستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه» وتصلي فيهم ركعتين، تطيل فيها السجود مستحضرا مغادرتهم إلى الأبد، وحاجتك وحاجتهم للأحد الصمد، فيطول دعاؤك ويصدق قلبك، ويعمق شعورك، ويمتد إلحاحك بيا رب! لا تكلني لنفسي طرفة عين وأصلح لي شأني كله.

وتستخير ربك في رحلتك مستحضراً كل معاني ألفاظ الاستخارة: «اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت

علام الغيوب. اللهم إن كنت تعلم أن حجي هذا العام خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فاقدره لي، ويسره لي، ثم بارك لي فيه. وإن كنت تعلم أن حجي هذا العام شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري عاجله وآجله فاصرفه عني واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان ثم أرضني به»[1]، ولا شك أن الاستخارة ليست في العبادة، لكنها في السير إليها بكل ملابساتها صحبة ووسيلة ومالاً وزمناً ومفارقة أهل، وأنت في كل كلمة تقولها تستحضر معناها وتتخلق بأخلاق الاستخارة وشروطها، وأيقن بأن الله تعالى سيوفقك لما هو خير، واجمع قلبك أثناء الدعاء وتدبره، وافهم معانيه العظيمة!

ثم أدر بصرك إلى ولدك وأهلك الذين اجتمعوا حولك وودعهم واحدًا واحدًا، اعتنق كل واحد

(١) حديث الاستخارة أخرجه البخاري برقم ١١٦٢

منهم بقلبك وصدرك، تواسي منهم المكلوم، وتسلل سخيمة الحزين، وتجذب قلب البعيد عنك والصادّ عن قربك؛ ليبقى بعدك ذاكراً دقات قلبك منتشياً بأنفاسك التي غادرت جسده، ولم تغادر روحه، خاصة زوجك ووالدك وولدك.

فإذا يمّمت إلى الباب وخرجت فقل من قلبك: «بسم اللهَّ، توكَّلْتُ عَلَى اللهَّ، اللَّهُمَّ إِنِّي أعوذُ بِكَ أنْ أَضِلَّ أو أُضَلَّ، أَوْ أَزِلَّ أوْ أُزَلَّ، أوْ أظلِمَ أوْ أُظلَم، أوْ أَجْهَلَ أو يُجهَلَ عَلَيَّ»[1].

أو قل: «بِسْم الله توكَّلْتُ عَلَى الله، ولا حوْلَ ولا قُوةَ إلاَّ بالله»[2]، واستحضر أنه يقالُ لك: هُديتَ وَكُفِيتَ ووُقِيتَ، ويتنحَّى عنك الشَّيْطَانُ»!

فيقوي ذلك قلبك، ويرقأ دمعة عينك، ويزيدك

(١) حديث دعاء الخروج أخرجه أبو داود برقم ٥٠٩٦، وصححه الألباني

(٢) أخرجه أبو داود برقم ٥٠٩٧، وصححه الألباني.

تـوكلاً عـلى الله، يطمئـن نفسـك، ويواسـيك، ويخفـف مـن مخاوفـك وقلقـك عـلى مـا تركـت، أو مـا أنـت عليـه قـادم.

فـإذا ركبـت في سـيارتك أو طيارتـك التـي تقلّـك إلى هنـاك فليكـن أول مـا تقـول: «بسـم الله. الحمـد لله. ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ۝١٣﴾ [الزخـرف: ١٣] الحمـد لله، الحمـد لله، الحمـد لله، الله أكـبر، الله أكـبر، الله أكـبر، سـبحانك اللهـم إني ظلمـت نفـسي فاغفـر لي، إنـه لا يغفـر الذنـوب إلا أنـت»[(١)].

استشـعر معنـى التسـمية، فاسـم الله إذا ذكـر عـلى شيء تبـارك، وإنـما بـدأت باسـم الله تعظيـماً لـه، والتصاقـاً باسـمه كأنـك قـد تخليـت عـن حولـك وقوتـك إلى حولـه وقوتـه، ومـن جهـدك وطولـك إلى جـدّه وطولـه.

(١) أخرجه أبو داود برقم ٢٦٠٤، وصححه الألباني.

ولما كان العبد يتقلب بين الغفلة والهوى والمخاطر، ولا يمكنه الدفع عن نفسه بشيء، ولو تخلى الله عنه لهلك، ولما كان عون الله له من غير استحقاق منه؛ كان عون الله له وتوفيقه إياه رحمة منه وفضلاً، فذكر الله بأوصاف الرحمة الخاصة «الرحيم»، والرحمة العامة «الرحمن».

وعليك أن تتزود في طريقك بمواد تعينك على سفرك، وتهيئ لك نفساً مقبلة، فتصطحب مادة مسموعة منتقاة ومتنوعة ما بين قراءة ومحاضرة، في المناسك والفوائد والفتاوى؛ لتمتعك وتفيدك، وتعيش معها في الجو ذاته الذي خرجت لأجله، فإني أرى كثيرا من الحجاج إذا ركبوا في رحلتهم قلبوا أبصارهم في الصحف ومجلات الطائرة التي تدور في فلك غير فلكهم فلا القلب يحيا ولا النفس تعلو.

واستحضر وأنت في الطريق أنك لله سائر، ولندائه ملبّ، وهو الذي دعاك وجعل الرسول يناديك بدعوته، فلم يختر أحدا يدعوك سوى خليله إبراهيم عليه السلام، إذ أمره بقوله: ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الحج: ٢٧]، وحينئذ تفكر وتساءل: لم سرت من بيتك؟ ودفعت مالك؟ وتركت عيالك؟

أليس طلبا لمرضاة الله!

فالله أكبر في نفسك منك !

لذا قدمت مرضاته على راحتك؛ فركبت له كل صعب، فأنت إذ ذاك مكبره على نفسك وعليك أن تعلن ذلك بلسانك ويلتزمه قلبك فتقول حين تركب:

«الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

[الزخرف: ١٣-١٤] اللهم إنا نسألُكَ في سفرنا هذا البرَّ والتقوى، ومن العمل ما ترضى، اللهم هون علينا سفرنا هذا واطو عنا بعده، اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل، اللهم إني أعوذ بك من وعْثاءِ السفر، وكآبة المنظر وسوء المنقلب في المال والأهل»[١].

ولا تزال كلما تذكرت تكبره معلنا ذلك بلسانك مظهره بفعلك، قال جابر رضي الله عنه: «كنا إذا صعدنا كبرنا، وإذا نزلنا سبحنا»[٢].

وإذا نزلت في الليل أو الفجر في طريقك رددت: «سَمعَ سَامعٌ بحمد الله وحُسنِ بلائه علينا، ربنا صاحبنا، وأفضِل علينا عائذا بالله من النار».[٣]

(١) أخرج هذا الدعاء مسلم برقم ٣٣٣٩.

(٢) أخرجه البخاري برقم ٢٩٩٣.

(٣) أخرج هذا الدعاء مسلم برقم ٢٧١٨.

وتتعوذ من كل ذي شر قد يؤذيك، من هوام أو جان أو إنسان فتقول: «أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق»[1].

وتستحضر القدوم على العزيز الجبار، الرحمن الرحيم، العليم الكريم فلا تزال أوصافه تخطر لك في قلبك تتفكر فيها، وتقلب فيها فؤادك، ويخفق لها قلبك، فما والله أحق من الله تتعلق به القلوب! وقد علق المحبون قلوبهم بمحبوبيهم حتى أنشد قيس بن الملوّح:

وقالوا لو تشاء سلوت عنها
فقلتُ لهمْ فإنِّي لا أَشَاءُ
وكيف وحبُّها عَلِقٌ بقلْبي
كما عَلِقَتْ بِأرْشِيَةٍ دِلاءُ
لها حب تنشأ في فؤادي
فليس له -وإنْ زُجِرَ- انتِهاءُ

(١) أخرج هذا الدعاء مسلم برقم ٢٧٠٨.

وعاذلــةٍ تُقطِّعنــي ملامــاً
وفي زجــر العــواذل لي بــلاء

وأنـت أولى لـو علـق بقلبـك حـب مولاك، والشـوق لرضـاه! مـن صاحـب القلب المحـب إذ يقـول: [1]

أحجــاجَ بيــتِ الله في أيّ هــودجٍ
وفي أيِّ خِــدْرٍ مِــنْ خُدُورِكُــمُ قَلْبِــي
أأبْقــى أسِــيرَ الحُــبِّ في أرضِ غُرْبــة
وحادِيكُــمُ يَحْــدو بقلبــيَ في الركْــبِ
وَمُغْــتَرَبٍ بِالمَــرْجِ يَبْكِــي بِشَــجْوِهِ
وقــد غــاب عنــه المسـعدون عـلى الحـب
إذا مَــا أتَــاهُ الرَّكْــبُ مِــنْ نَحْــوِ أرْضِــهِ
تَنَفَّــسَ يَسْتَشْــفِي بِرَائِحــة الرَّكْــبِ

(١) قيس بن الملوّح.

في الميقات..

آاااه من الميقات... لا أدري لم يذكرني بساعة الاحتضار!!

أهو اسمه الذي يحملني إلى قوله تعالى: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [سبأ: ٣٠] فتقارب كلمة الميعاد من الميقات يحملني لذاك، إذ لا يصح لك أن تحرم قبله ولا بعده، بل عليك أن تنزل بساحه وتنيخ ركائبك، كما يتوقف زمنك حين ينادى عليك بالرحيل من هذه الدنيا، فتتوقف بك جميع معالم الحياة الدنيا...

أم هو المشهد المرتسم في خيالي عن تجريدك من الثياب التي تمت للحياة بصلة، واستبدالها بأمثلة الأكفان لا خياط ولا كمام ولا لون، هذه المحطة

تقف فيها لتكون مكفنا نفسك بنفسك، خارجا من كل معالم حياتك باختيارك، وكأنه يقال لك: توقف هنا.. اعتبر.. فكر.. هكذا سيكون مآلك! ما أشبه الميقات بتلك الساعة التي تستسلم فيها رغما عنك لمن يجرد ثيابك، ويغسّلك، ويطيبك، ويكفنك، ويودعك قبرك، ويقف عندك لحظات يدعو لك، ثم يسدل عليك الستار:

كَأَنَّني بَينَ تلك الأَهلِ مُنطَرِحٌ
عَلى الفِراشِ وَأَيْديهِمْ تُقَلِّبُني
وَقد أَتَوْا بِطَبيبٍ كَيْ يُعالِجَني
وَلَمْ أَرَ الطِّبَّ هذا اليومَ يَنْفَعُني
واشتد نَزْعِي وَصَار المَوتُ يَجْذِبُها
مِن كُلِّ عِرْقٍ بِلا رِفقٍ ولا هَوَنِ
واستَخْرَجَ الرُّوحَ مِني في تَغَرْغُرِها
وصارَ رِيقي مَريراً حِينَ غَرْغَرَني

وَغَمَّضُــــوني وَراحَ الـــكُلُّ وانْصَرَفـــوا

بَعْــدَ الإِيــاسِ وَجَــدُّوا في شِرَا الكَفَــنِ

وَقـــامَ مَــنْ كانَ حِــبَّ النّــاسِ في عَجَــلٍ

نَحْــوَ المُغَسِّــلِ يَأْتينــي يُغَسِّــلُني

وَقـــالَ يـــا قَــوْمِ نَبْغِــي غاسِــلاً حَذِقــاً

حُــراً أَرِيبــاً لَبِيبــاً عَارِفــاً فَطِــنِ

فَجــــاءَني رَجُــــلٌ مِنْهُــــمْ فَجَــــرَّدَني

مِــنَ الثِّيــابِ وَأَعْــرَاني وأَفْــرَدَني

وَأَوْدَعــــوني عَــــلى الأَلْــــواحِ مُنْطَرِحـــاً

وَصــارَ فَوْقــي خَرِيــرُ المــاءِ يَنْظِفُنــي

وَأَسْــكَبَ المــاءَ مِــنْ فَوقــي وَغَسَّــلَني

غُسْــلاً ثَلاثــاً وَنَــادَى القَــوْمَ بِالكَفَــنِ

وَأَلْبَسُــوني ثِيابــاً لا كِــمامَ لهــا

وَصــارَ زَادي حَنُوطِــي حــينَ حَنَّطَنــي

وأَخْرَجــوني مِــنَ الدُّنيــا فَــوا أَسَــفاً

عَــلى رَحِيــلٍ بِــلا زادٍ يُبَلِّغُنــي

وَحَمَّلــوني عــلى الأكتــافِ أَربَعَــةً
مِــنَ الرِّجــالِ وَخَلْفِــي مَــنْ يُشَــيِّعُني
وَقَدَّمــوني إِلى المحــرابِ وانصَرَفــوا
خَلْــفَ الإِمــامِ فَصَــلَّى ثــمّ وَدَّعَنــي
صَلَّــوْا عَــلَيَّ صَــلاةً لا رُكــوعَ لهــا
ولا سُــجودَ لَعَــلَّ اللهَ يَرْحَمُنــي
وَأَنْزَلــوني إِلــى قَــبري عــلى مَهَــلٍ
وَقَدَّمُــوا واحِــداً مِنهــم يُلَحِّــدُني
وَكَشَّــفَ الثّــوْبَ عَــن وَجْهــي لِيَنْظُــرَني
وَأَسْــكَبَ الدَّمْــعَ مِــنْ عَيْنيــهِ أَغْرَقَنــي
فَقــامَ مُحتَرِمــاً بِالعَــزمِ مُشْــتَمِلاً
وَصَفَّــفَ اللَّبْــنَ مِــنْ فَوْقِــي وفارَقَنــي
وقَــالَ هُلُّــوا عليــه الــتُّرْبَ واغْتَنِمــوا
حُسْــنَ الثَّــوابِ مِــنَ الرَّحمــنِ ذِي المِنَــنِ
في ظُلْمَــةِ القــبرِ لا أُمٌّ هنــاك ولا
أَبٌ شــفيقٌ ولا أَخٌ يُؤَنسُــني

ما أشد الشبه!

توقف.. غسل.. طيب.. تقليم أظفار.. حلق.. تطييب المغابن.. ومفرق الرأس لبس الإحرام.. صلاة.. وركوب على الراحلة، ومن ثم التوجه للمثوى هناك مثواك الجسدي، وهنا مثواك الروحي، حيث تهوي الأفئدة، وتثوب النفوس إلى بيت الله العتيق الذي جعله الله لك، وكرمك به؛ لتعيد فيه حساباتك؛ ولتخرج بعدها وليدا من جديد بلا ذنوب!

وهنا تعلن بلسانك وقلبك أنك لبيت الدعاء، وأجبت النداء، وتخلصت من كل كبرياء تقول: «اللهم لبيك عمرة متمتعا بها إلى الحج»، أو تقول: «اللهم لبيك حجاً»، أو تقول: «اللهم لبيك عمرة

وحجـاً»، وقـد تـرك لـك الخيـار، كـما تـرك لـك في دنيـاك الخيـار؛ لتختـار الحيـاة التـي تريـد، والعمـل الـذي تريـد، والـذي يناسـبك فتعطـي فيـه بإخـلاص مـا دام عمـلا يقربـك لربـك وترجـو فيـه رضـاه، فـلا بـأس عليـك.

ولتعلـم أن لـكل أحـد أن يعمـل وفـق مـا يصلـح لـه وكل ميـسر لمـا خلـق لـه.

لكـن ثـمّ أمـر لا تتعـداه، وهـو أن صلاتك ونسـكك ومحيـاك ومماتـك لله رب العالمـين، فانتبـه يشـترك معـه غـيره وإلا تـركك وشركك!

فـلا حاجـة لـه فيـك ولا منـك، وحينهـا تـردد: «لبيـك اللهـم لبيـك، لبيـك لا شريـك لـك لبيـك، إن الحمـد والنعمـة لـك والملـك لا شريـك لـك».

ولا بـأس في الزيـادة عـلى هـذه التلبيـة، فقـد ثبـت

أن النبي ﷺ كان يسمع الصحابة يقولون: (لبيك ذا المعارج)[1]، فلم يأمرهم بالتزام اللفظ الوارد، وجاء في بعض صيغ التلبية من حديث أنس (لبيك حقاً حقاً، تعبدًا ورقًّا)[2]، و (لبيك إله الحق) من حديث أبي هريرة[3].

ولذلك قال جمهور العلماء بجواز الزيادة، وهو فعل السلف، وكان ابن عمر يقول: (لبيك وسعديك، والخير بيديك، والرغباء إليك والعمل)[4]. قال بعض العلماء: والأفضل أن يقتصر على الوارد؛ لأنه إذا اقتصر على الوارد أجر بأجرين: الأول: أجر التأسي بالنبي ﷺ، والثاني: أجر اللفظ الوارد.

(١) أخرجه أبو داود ١٨١٥، وصححه الألباني عن جابر بن عبدالله قال (أهلَّ رسول الله ﷺ فذكر التلبية مثل حديث ابن عمر قال والناس يزيدون «ذا المعارج». ونحوه من الكلام والنبي ﷺ يسمع فلا يقول لهم شيئا).

(٢) رواه البزار في مسنده برقم ٦٨٠٣.

(٣) رواه النسائي ٢٧٥٢ وصححه الألباني

(٤) أخرجه مسلم ١١٨٤

وفي فضل التلبية روى سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلم يلبي إلا لبى من عن يمينه أو عن شماله من حجر أو شجر أو مدر حتى تنقطع الأرض من هاهنا وهاهنا» [1]

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أن النبي ﷺ سئل: «أي الحج أفضل؟ قال: العج والثج» [2].

ولما كانت التلبية بهذه المثابة وبهذا الفضل تداعى الحجيج على التأكيد عليها؛ لقصر الطريق والغبن في التفريط فيها، مع ما لها من الفضل. وقد رأى العلماء لها أوقاتا هي فيها آكد:

الأول: إذا علا نشزاً، أي: إذا رقى مكاناً مرتفعاً لبى.

الثاني: إذا هبط وادياً، أي: منخفضاً.

(١) رواه الترمذي(٨٢٨) وصححه الألباني في المشكاة (٢٥٥٠).

(٢) رواه الترمذي(٧٥٧) وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٨٢٧). ومعنى العج: رفع الصوت بالتلبية. والثج: إسالة الدماء بالذبح والنحر

الثالث : إذا صلى مكتوبة، أي: فريضة من الفرائض.

الرابع: إذا أقبل الليل.

الخامس: إذا أقبل النهار.

السادس: إذا التقت الرفاق، وكانوا يتلاقون في الطريق وهم يمشون أو ركباناً على رواحلهم وسياراتهم.

السابع: إذا ركب دابته أو مركوبه.

الثامن : إذا نزل.

التاسع: إذا سمع من يلبي، فيجدد التلبية.

العاشر: إذا رأى البيت.

الحادي عشر: إذا فعل محظوراً وهو ناسٍ، كتغطية رأس، ولبس مخيط، ونحو ذلك. ويلحق

بـه إذا طـال بـه الصمـت والغفلـة، أو تشـاغل بـشيء مـن دنيـاه.

ويجـدر بـك أن تعـرف معنـى التلبيـة؛ لتسـتحضر هـذا المعنـى في كل محطـات الحـج القادمـة، فإنـك لـن تـزال تـرده مـذ امتثلـت للنـداء وأجبـت الداعـي إلى الحـج فـما معنـى التلبيـة يـا تـرى؟

قـال الحافـظ شـمس الديـن ابـن القيـم رحمـه الله: في معنـى التلبيـة ثمانيـة أقـوال:

«أحدهـا: إجابـة لـك بعـد إجابـة، ولهـذا المعنـى كـرّرت التلبيـة إيذانًـا بتكريـر الإجابـة.

الثـاني: أنّـه انقيـاد، مـن قولهـم: لبـت الرجـل إذا قبضـت عـلى تلابيبـه، ومنـه لبتـه بردائـه. والمعنـى: انقـدت لـك وسـعت نفـسي لـك خاضعـة ذليلـة، كـما يفعـل بمـن لبـب بردائـه وقبـض عـلى تلابيبـه.

الثالث: أنّه من لبّ بالمكان إذا قام به ولزمه. والمعنى: أنا مقيم على طاعتك ملازم لها.

الرابع: أنّه من قولهم: داري تلبّ دارك، أي تواجهها وتقابلها. أي مواجهك بما تحبّ متوجه إليك.

الخامس: معناه: حبًّا لك بعد حبّ، من قولهم: امرأة لبّة إذا كانت محبّة لولدها.

السادس: أنّه مأخوذ من لُبّ الشيء، وهو خالصه، ومنه لبّ الطعام، ولبّ الرجل عقله وقلبه. ومعناه: أخلصت لبّي وقلبي لك، وجعلت لك لبّي وخالصتي.

السابع: أنّه من قولهم: فلان رخي اللبب، وفي لبّ رخي.

أي في حال واسعة منشرح الصدر. ومعناه:

أنّي منشرح الصدر متّسع القلب لقبول دعوتك وإجابتها متوجّه إليك بلبب رخي يوجد المحب إلى محبوبه لا بكره ولا تكلّف.

الثامن: أنّه من الإلباب، وهو الاقتراب. أي اقترابا إليك بعد اقتراب، كما يتقرّب المحبّ من محبوبه».[1]

أجيئُك يا ليلايَ بالشوق شاكيا
وأسألُ صبراً إذ شفاكِ شفانيا
وأشكوكِ طيفاً كلما حنَّ ليلةً
وأمسى خليل الروح ضَنَّ لياليا
وكيف سُلوِّي والحشا كل ليلة
يبُثُّ هناءَ الضاجعين بكائيا
أُمزقُ ساعاتي أهيمُ صبابةً
أذوبُ حنيناً استحثُّ الثوانيا

(١) تهذيب السنن ٥/ ١٧٥-١٨٢

(وإني لأستغشـــي ومـــا بيَ نعســـةٌ
لعـــلَّ خيـــالاً منـــك يلقـــى خياليـــا)
لعـــلَّ رزازاً منـــك تحملـــه الصَبـــا
فيرســـو بهُـــدبِ العـــين مـــا دمـــتُ وافيـــا
لعـــلِّي بذكـــر الطيـــف تغفـــو كآبتـــي
وكان بسَـــتر الغيـــبِ يحلـــو هنائيـــا
فتلـــك أمـــاني النفـــس يـــا ليـــلُ فأوفهـــا
وإن تـــكُ ذا مَـــنٍّ أتيتـــك حافيـــا
وإلا فـــلا أبقـــى لـــك الله بـــدره
ولا بِـــكَ صـــاحَ الصُبـــحُ يومـــا ولا بِيَـــا[1]

لعمـر الله لا يجـد المحبـون في قلوبهـم مـن التعلـق مـا يجـده المقبـل عـلى الله بلبـه مـن الإخبـات إلا أن أولئـك يسـكرون بالحـب؛ فيضيعـون دينهـم ودنياهـم، وهؤلاء يحيـون بالحـب فيقيمـون دينهـم ودنياهـم؛ فيعـودون بالطمأنينـة، ويعـود أولئـك بالقلـق.

(١) عصام عبد الباسط

وحين يفتر اللسان عن التلبية فلا أحسن من أن يستعيد في فكره فضله وأجره! فتعود نفسه للهمة، ويقوى لسانه على المعاودة؛ حتى يبح بذلك صوته، فالتلبية شعار الإجابة والرغبة والرهبة والتخلي عما في القلوب قبل ما في الأيدي.

وينبغي أن يتشارك الجميع فيها، ويتعاونوا على إعلانها؛ لئلا يغيب معناها ومقصودها عن ذكر محرم! قال رسول الله ﷺ: «أتاني جبريل فأمرني أن آمر أصحابي أن يرفعوا أصواتهم بالإهلال والتلبية»[1].

وحين يلتزم الحاج بالإحرام فإنه «يتأدب بآدابه فيعرف محظوراته وما يحرُم عليه، وأنه سوف يتنازل عن هِنْدامه وملابسه التي يزهو بها، ومكانته التي

(١) رواه الترمذي (٨٢٩) وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (١١٣٥).

يفتخر بها بين الناس، وكيف أن الإحرام يُسوِّي بين الجميع.

يتعلم كيف يتأدب مع نفسه، ومع كل أجناس الكون من حوله، مع نفسه فلا يُفكّر في معصية، ولا تمتدّ يده حتى على شعرة من شعره، أو ظُفْر من أظفاره ولا يقْربُ طيباً، ولا شعره صابونة لها رائحة.

وفي الحجِّ يتأدب الحاج مع الحيوان، فلا يصيده ولا يقتله، ومع النبات فلا يقطع شجراً.

يتأدب مع الجماد الذي يعتبره أَدْنى أجناس الكون، فيحرص على تقبيل الحجر الأسود، ويجتهد في الوصول إليه، فإنْ لم يستطع أشار إليه بيده».[1]

قال سفيان بن عيينة: «حج علي بن الحسين رضي الله عنهما فلما أحرم، واستوت به راحلته،

(١) تفسير الشعراوي ٢٦٠٥

اصفـرّ لونـه، وانتفـض، ووقعـت عليـه الرعـدة، ولم يسـتطع أن يلبـي.

فقيل له: لم لا تلبي!

فقـال: أخشـى أن يقـال لي: لا لبيـك ولا سـعديك!

فلـما لبـى، غـشي عليـه، ووقـع عـن راحلتـه، فلـم يـزل يعتريـه ذلـك حتـى قـضى حجـه».

أمـا والـذي حـج المحبـون بيتـه
ولبـوا لـه عنـد المَهـلّ وأحرمـوا

وقـد كشـفوا تلـك الـرؤوسَ تواضعـاً
لِعـزةِ مـن تعنـو الوجـوهُ وتُسْـلِم

يُهلِّـون بالبيـداءِ لبيـك ربنَـا
لـك الملـك والحمـد الـذي أنـت تعلـمُ[١]

(١) من شعر ابن القيم

وأقبلنا على البيت العتيق..

أما رأيت كيف تتغير خفقات قلبك وقد بدت لك أطلال مكة وبيوتاتها المتباعدة عن الحرم! وهي ترسم لك خيالاً لبيت الله الحرام الذي أقبلت إليه تحث الخطى!

فتدنو وتدنو ويزداد لهيب شوقك! يزيد من أنفاسك! ويفيض من عبراتك! حتى تخنقك وتحشرج صوتك! فيالله.. هذا القرب فكيف العناق!

أطوف به والنفسُ بعد مشوقةٌ
إليه وهل بعد الطواف تداني

وألثـم منـه الركـن أطلـب بَـرْد مـا
بقلبـيَ مـن شـوقٍ ومـن هيـمان
فـوالله مـا أزْدادُ إلا صبابـةً
ولا القلـبُ إلا كثـرةَ الخفقـانِ
فيـا جَنـة المـأوى ويـا غايـةَ المنـى
ويـا منيتـي مـن دون كلِ أمـان
أبـت غلبـاتُ الشـوق إلا تقربـا
إليـك فـما لي بالبعـادِ يـدان
ومـا كان صَـدّيْ عنـك صَـدَّ ملالـة
ولي شـاهدٌ مـن مقلتـي ولسـان
دعـوت اصطبـاري عنـك بعـدك والبـكا
فلبّـى البـكا والصـبر عنـك عصـاني
وقـد زعمـوا أن المحـبَ إذا نـأى
سـيبلى هـواه بعـد طـولِ زمـان
ولـو كان هـذا الزعـمُ حقـاً لـكان ذا
دواءُ الهـوى في النـاسِ كُلَّ زمـان

وإيـاك أن تشـغلك المبـاني والعلامـات واللافتـات بكثرتهـا وأنواعهـا عـن رؤيـة مقصـدك واستشـعار قربـك مـن مقـام طالمـا انتظرتـه، ولحظـات كـم حدثـت نفسـك بهـا، كـما الحبيـب يشـتاق حبيبـه فـإذا حـط رحالـه عنـده، وأوشـك عـلى لقيـاه تفقـد غـيره ومـال إلى سـواه فيـا غبنـاااه! ويـا خسـارتاااه! ويـا شـدة لمـا بعـد البعـد تلقـاه!

فأحـضر قلبـك واربطـه في سـارية مـن سـواري الحـرم، وشـدّ وثاقـه، وإيـاك أن يتخونـك أو يتفلـت منـك، فإنـك يوشـك أن تضيعـه فـلا تجـده!!

واحـرص أن تدخـل مـن حيـث دخـل النبـي ﷺ حبيبـك وقدوتـك ودليـك إلى مـولاك! فادخـل مـن بـاب السـلام..فإن لم تسـتطع فمـن أي بـاب فادخـل.

وقـل: يـا نفـس هـذي قـدرتي! والقلـب مرهـون بـما يحـبّ ويرغب.

ولا تنس تفقد نفسك وحاجتك التي قد تشغلك عن الخشوع والخنوع والخشية والإنابة! فإن عدوك لن يألو جهداً في إشغالك ما استطاع لذلك سبيلاً، فإن كنت حقناً فابدأ بحاجتك، وتوضأ وأحسن الوضوء ثم ادخل، وإن كنت جائعاً فخذ من طعامك ما تشبع نهمتك؛ حتى تقبل بقلب فارغ من كل شغل، وإياك أن يكون شغلك بنفسك وتنسى رفاقك الذين يسيرون معك! سلهم عن حاجتهم، واصبر عليهم لو بدا لهم منها بادية؛ لئلا يشغلوك بعد، ويقطعوا عليك خلوتك بمحبوبك، وينكدوا عليك صفوك، وتفتنهم بأنفسهم.

وكن في كل ذلك لطيفاً شفيقاً رقيقاً، فإن المقام مقام شدة وزحام، وتوشك النفوس الضعيفة أن تتهور؛ فتضيع ما لأجله جاءت، فشدّ على أيديهم بالعون وحسن الصحبة.

فـإذا دلفـت بـلاط بيـت المعظـم في قلبـك فليكـن دخولـك لـه تحيـة، وتحيتـك: «بسـم الله والصـلاة والسـلام عـلى رسـول الله، اللهـم افتـح لي أبـواب رحمتـك».

ثـم سر في الزحـام بهـون، ولا يكـن همـك الانتهـاء بـل همـك حسـن اللقـاء.. وتذكـر أن كلا لـه شـوق كشـوقك، وكلا لـه قلـب كقلبـك، وكلا لـه حـظ كحظـك! لـه مطامـع ويريـد الوصـال.. بـل ربـما كانت رحلتـه أشـق! وشـقته أبعـد! وفرصتـه أضعـف! وربـما يكـون ذلـك اللقـاء منـه الأول في حياتـه وهـو الآخـر فيهـا! فانظـر إليـه نظـر الشـفقة، واعلـم أنـه إنـما جـاء بـه مـا جـاء بـك مـن الوجـد فكـن لـه ومعـه!

فـإذا رأيـت الكعبـة البيـت الحـرام القيـام للنـاس فقـف قليـلا وتأمـل...

هنا اختار مولاك بيته...

هنا أمر خليله ببنائه ورفع قواعده...

هل تساءلت حين ذاك اللقاء..لم يا ترى!

قبل أن أجيبك أريد منك أن تقرأ هذه الآيات بتدبر وتأمل، أعدها مرتين وثلاثا حتى تشهد الموقف وتعيش المشهد بكل فصوله وتفاصيله...

أرجوك..ثم أرجوك لا تنظر لهذا المقطع بعينيك وتتعداه لكلماتي... اقرأه كلمة كلمة... عشه حلقة حلقة... واستحضر شعورك وأنت هنا قبالة البيت العتيق... تستعيد هذه الآيات.. تخيل إبراهيم الخليل وقد جاء به حب مولاه على رجليه يحمل رضيعا، وزوجة مسكينة، ويتركها عند هذا البيت قبل أن تقوم له قواعد، يختطه لهم ويعلم مكانه، ثم يتركهم بواد غير ذي زرع... هنا حيث أنت تقف... على الرخام وسط الزحام.. تفقد هذا المشهد الذي يجلي صورة العبودية بكل منازلها.. والطواعية بكل

درجاتها.. والحبّ بكل شغاف القلب.. هنا حيث يرفع إبراهيم القواعد من البيت هو وإسماعيل في مجيء آخر وقد شب الغلام وبلغ مع أبيه مبلغ المعاونة... مبلغ الرجال... هذا الغلام الذي جاء بعد يأس، ونمى وترعرع على شفقة عليه، ونجا بعد محنة فيه وبه.

يا لله كم تعصر العبرات تلك المشاهد! بل تفيضها سحا! وكم تحلق بالقلوب لتبلغ بها الحناجر!

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ

أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ
أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ
﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ
ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن
يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي
ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ
أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ
إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمۡ
كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ
مِنۢ بَعۡدِي قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ
وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ
لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ وَقَالُواْ
كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ قُلۡ بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا
كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ
إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ

وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾ ﴾[البقرة: ١٢٥-١٤١].

هل قرأت.. هل فطنت.. هل ارتويت بدمعك حد الغصة!!

إذن فاقرأ.. بالله عليك اقرأ:

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى

وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ﴿٤١﴾ [إبراهيم: ٣٥ - ٤١].

هل استوقفك المشهد.. هل أرعبك البلاء.. هل أسرك الموقف..هل حركك الثبات!

ألا يحثك ذلك على حسن التأسي والاقتداء الذي دعيت للحج لأجله ونودي بك لتراه!

هل تعلم من ناداك.. إنه إبراهيم الخليل.. هل

رأيته إذ ناداك.. لابد أنك رأيته.. فربك قد أمرك أن تراه بقلبك وأن تتخذ مقامه مصلى! ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥] هل بقي في ذكراك..لم دعيت لتتخذ من مقامه مصلى؟ وأنت في دين لا يقدس آثار الأشخاص! ألا ترى لذلك ملمحا.. إنه التأسي، إنه شموخ القدوات، إنه البناء الروحي للأتباع، لا ليكونوا مقلدين فحسب! بل ليكونوا ربانيين على نفس الهدى والنسق! ﴿وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت: ٤٣]!

ليت أنك تطوي على نفسك قبل أن تحج وتقرأ آيات الحج في سورة البقرة وسورة إبراهيم وسورة الحج وتنوع مراجعك؛ لتقف على المعاني والحكم؛ لتستحضرها في حركاتك في الحج وسكناتك، وأنا أجزم سلفا أنك ستعود بغير القلب الذي ذهبت به.

توقير الكعبة..

جاء الأمر بتعظيم الكعبة وتوقيرها ولذا لما رآها رسول الله ﷺ قال: «ما أعظمك!» [1].

والله تعالى يقول: ﴿ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ﴾ [المائدة: ٩٧].

ومعنى ﴿ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ ﴾ أي: أمنا للناس، والأمن هنا عام للأوائل والأواخر، ولعل ثمة ملمحاً لم يتجلَّ للأولين في معنى كون بقاء الكعبة قياماً للناس، لا سيما وقد جاء في آخر الآية ﴿ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ﴾ [المائدة: ٩٧] فلا ريب أنه سيكون من المعجز

---

(١) أخرجه الترمذي ٢٠٣٢ وقال الألباني: حسن صحيح

ظهور ذلك وسنعلمه بعد أن لم نكن به عالمين، والمعنى الذي ذكره المفسرون -على ما سيأتي- مراد ظاهر، لكنه ليس كل المراد بل سيظهر لنا من الغيب ما يجعلنا نقر بعلم الله لشيء خفي علينا وعلى الأجيال السابقة، وذلك من معجزات القرآن وآياته، فهل يا ترى بقاء الكعبة مرفوعة ببنيانها أمان للناس من انهيارات الكرة الأرضية خاصة وأنها في مركز الأرض! ومن المنصوص عليه أن هدم الكعبة يكون في آخر الزمان حين لا يبقى على الأرض من يعبد الله وعلى أولئك تقوم الساعة، وهذا المعنى لم أقف عليه في تفسير من التفاسير، لكنه غير ممتنع بدلالة كثير من النصوص الشرعية من الكتاب والسنة[1] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ ،عَنِ النَّبِيِّ

(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ،عَنِ النَّبِيِّ قَالَ: « يُخَرِّبُ الْكَعْبَةَ ذُو السُّوَيْقَتَيْنِ مِنَ الْحَبَشَةِ »، وهذا يكون في آخر الزمان كما نوه لذلك البخاري رحمه الله إذ أخرج هذا الحديث في بابقول الله تعالى : (جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس والشهر الحرام والهدي والقلائد ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض وأن الله بكل شيء.

قَالَ: « يُخَرِّبُ الْكَعْبَةَ ذُو السُّوَيْقَتَيْنِ مِنْ الْحَبَشَةِ»، وهذا يكون في آخر الزمان كما نوه لذلك البخاري رحمه الله إذ أخرج هذا الحديث في بابقول الله تعالى : (جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس والشهر الحرام والهيدي والقلائد ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض وأن الله بكل شيء. وهي بحاجة إلى بحث وفيها من وجوه الإعجاز ما يبعث على بحثها.. والله أعلم

ذكر في تفسير المنار تأول المفسرين قال: «وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ شِهَابٍ قَالَ: جَعَلَ اللهُ الْبَيْتَ الْحَرَامَ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ يَأْمَنُونَ بِهِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى، لَا يَخَافُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا حِينَ يَلْقَوْنَهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ أَوْ فِي الْحَرَمِ أَوْ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ».

وَرَوَى عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ وَابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ الْمُنْذِرِ وَأَبُو الشَّيْخِ عَنْ قَتَادَةَ: «جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ

قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ» قَالَ: «حَوَاجِزُ أَبْقَاهَا اللهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ بَيْنَ النَّاسِ، فَكَانَ الرَّجُلُ لَوْ جَرَّ كُلَّ جَرِيرَةٍ ثُمَّ لَجَأَ إِلَى الْحَرَمِ لَمْ يُتَنَاوَلْ وَلَمْ يُقْرَبْ، كَانَ الرَّجُلُ لَوْ لَقِيَ قَاتِلَ أَبِيهِ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ لَمْ يَعْرِضْ لَهُ وَلَمْ يَقْرَبْهُ، وَكَانَ الرَّجُلُ لَوْ لَقِيَ الْهَدْيَ مُقَلَّدًا وَهُوَ يَأْكُلُ الْعَصَبَ مِنَ الْجُوعِ لَمْ يَعْرِضْ لَهُ وَلَمْ يَقْرَبْهُ، وَكَانَ الرَّجُلُ إِذَا أَرَادَ الْبَيْتَ تَقَلَّدَ قِلَادَةً مِنْ شَعْرٍ فَأَحْمَتْهُ وَمَنَعَتْهُ مِنَ النَّاسِ، وَكَانَ إِذَا نَفَرَ (أَيْ عَادَ مِنَ الْحَجِّ) تَقَلَّدَ قِلَادَةً مِنَ الْخَزِّ أَوْ مِنَ السَّمَرِ حَتَّى يَأْتِيَ أَهْلَهُ حَوَاجِزُ أَبْقَاهَا اللهُ بَيْنَ النَّاسِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ» اهـ.

وَالْمُخْتَارُ أَنَّ جَعْلَ اللهِ تَعَالَى هَذِهِ الْأَشْيَاءَ قِيَامًا لِلنَّاسِ هُوَ جَعْلٌ تَكْوِينِيٌّ تَشْرِيعِيٌّ مَعًا، وَهُوَ عَامٌّ شَامِلٌ لِمَا تَقُومُ بِهِ وَتَتَحَقَّقُ مَصَالِحُ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ، وَشَامِلٌ لِزَمَنِ الْجَاهِلِيَّةِ وَعَهْدِ الْإِسْلَامِ، لَكِنْ لَهُ

فِي كُلٍّ مِنَ الْعَهْدَيْنِ صُورَةٌ خَاصَّةٌ بِهِ فَفِي عَهْدِ الْجَاهِلِيَّةِ كَانَ التَّكْوِينِيُّ أَظْهَرَ وَالتَّشْرِيعِيُّ أَخْفَى؛ لِأَنَّهُمْ عَلَى إِضَاعَتِهِمْ لِشَرِيعَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ عليهم السلام إِلَّا قَلِيلًا مِنْ مَنَاسِكِ الْحَجِّ مَزَجُوهَا بِالْوَثَنِيَّةِ وَالْخُرَافَاتِ الْوَضْعِيَّةِ، وَكَانَتْ آيَاتُ الله تَعَالَى التَّكْوِينِيَّةُ ظَاهِرَةً فِيهِمْ، وَأَمَّا فِي عَهْدِ الْإِسْلَامِ فَالتَّشْرِيعِيُّ أَظْهَرُ».[1]

وبعد شوق وطول غياب تدنو من الحجر الأسود، وتقبله، وتستحضر أنه من بلدك الأول؛ الجنة، فتعانقه، وتقبله، ولو كنت تطيق ضممته لقلبك، فما أشد شوقك إلى هناك حيث النعيم المقيم! حيث كنت فيها مقيماً، وأخرجك هواك، وصرفتك عنه غفلتك الأولى، إذ خالفت الأمر وانتهكت حق الرب في الطاعة، فكان ذلك الذنب

(١) ٧/١٠١

ذنبا مبعدا، ولئن كنت تبت منه فما زالت تبعته تلاحقك، فإما أن تعلن البراءة من الهوى الذي منها أخرجك، وإما أن تركع لهواك وتضيع رضا مولاك؛ فتكون من المحرومين من موطن هذا الحجر.

إنه حجر لا ينفع ولا يضر لكن في عناقه وتقبيله فكرة، إنها فكرة الحنين، إنها فكرة الحث على العودة للوطن الأصل؛ الذي منه أخرجت، وبسبب الشيطان وهواك عنه أقصيت، وأبعدت... فسل نفسك.. هل يا ترى تعود!

فحيَّ عَلى جناتِ عدنٍ فإنَّها
منازلُكَ الأولى وفيها المُخيَّمُ
ولكنَّنا سبي العدوِّ فهل تَرى
نَعودُ إلى أوطانِنا ونسلَّمُ

وقــد زَعمــوا أنَّ الغريــبَ إذا نَــأى
وشَــطَّتْ بــه أوطانُــهُ فَهْــوَ مُغــرَمُ
وأيُّ اغــتِرابٍ فــوقَ غُربَتنــا التــي
لهــا أضْحَــتِ الأعــداءُ فينــا تَحكَّــمُ
وحــيَّ عــلى روضاتهــا وخيامهــا
وحــيَّ عــلى عيــش بهــا ليــس يسـأمُ
وحــيَّ عــلى الســوقِ
الــذي فيــه يلتقــي المُحِــ
ــبون ذاكَ الســوقُ للقــوم مُعلــمُ
فــما شــئتَ خُــذْ منــهُ بــلا ثَمــنٍ لــه
فقــد أسـلَفَ التُّجــارُ فيــه وأسـلَموا
وحــيَّ عــلى يــوم المزيــدِ الــذي بــهِ
زيــارةُ ربِّ العــرشِ، فاليــوم مَوسِــمُ
وحــيَّ عــلى وادٍ هنالِــكَ أفْيَــحٍ
وتربَتــهُ مــن أذْفَــرِ المســكِ أعظَــمُ

منابــرُ مــن نــورٍ هنــاكَ وفضــةٍ
ومِــنْ خالِــصِ العقيــانِ لا تتقصَّــمُ
وكثبــانُ مســكٍ قــد جُعِلْــنَ مَقاعــداً
لِمَــنْ دونَ أصحــابِ المنابــر تُعلــمُ
يــرون بــه الرحمــن - جــل جلالُــه -
كرؤيــةِ بــدر التــمِّ، لا يُتَوهــمُ
وكالشــمس صحــواً ليــس مــن دون أفقهــا
ســحابٌ، ولا غيــمٌ هنــاك يغيِّــم
فبينــا هُــمُ في عيشِــهم وسرورِهــم
وأرزاقُــهُم تجــري عليهــم وتُــقْسَمُ
إذا هُــمْ بنــورٍ ســاطعٍ قــد بــدا لهــم:
ســلامٌ عليكــم: طبتــمُ، ونَعِمتــمُ
سَــلامٌ عليكُــم يَســمعونَ جميعُهُــمْ
بآذانِهــم تسْــليمَه إذْ يُسَــلِّمُ
يقــولُ سَــلوني مــا اشْــتَهَيْتُمْ فــكُل مــا
تُريــدونَ عنــدي، إنَّنــي أنــا أرْحَــمُ

فقالــوا جميعــاً: نحــن نَســأَلُكَ الرِّضــا
فأنــتَ، الــذي تــولي الجميــلَ وترحَــمُ
فَيعطِيهـــمُ هـــذا، ويَشـــهد جـــمعُهمْ
عليــهِ، تعــالى الله ، فــالله أكــرَمُ
ولكنَّـــا التوفيـــقُ بـــالله إنَّـــه
يخــصُّ بــه مــن شــاء -فضــلاً- ويُنْعِــمُ
فيـــا بائِعـــاً هَـــذا ببخـــسٍ مُعجّـــلٍ
كأَنَّــكَ لا تَــدري ، بَــلى ســوفَ تَعْــلَمُ
فقـــدِّمْ فدتـــكَ النَّفـــسُ نفسَـــكَ إنَّهـــا
هـــي الثمـــنُ المبـــذولُ حـــين تســـلَّمُ
وخـــض غمـــراتِ المـــوتِ وارقَ معـــارجَ
المحبَّـــةِ في مرضاتهـــم تَتســـنَّمُ
وســـلِّم لهـــم مـــا عاقـــدوك عليـــه إنْ
تُـــرد منهمـــو أنْ يَبذلـــوا ويُســـلِّموا
فـــما ظَفِـــرت بالوصـــل نفـــسٌ مهينـــةٌ
ولا فـــازَ عبـــدٌ بالبطالـــة ينعـــمُ

وحين تستلم الحجر فعليك أن تسمي وتكبر ربك فتقول: «بسم الله و الله أكبر» وتستحضر معنى التسمية والتكبير؛ فكلمة «الله أكبر» معناها أن الله سبحانه وتعالى أكبر من كل شيء في هذا الوجود، وأعظم وأجل وأعز وأعلى من كل ما يخطر بالبال أو يتصوره الخيال.

ولهذا فإن على العبد إذا وقف بين يدي الله تعالى لمناجاته وأداء عبادته وتلفظ بهذه الكلمة عليه أن يستحضر هذه المعاني، سواء في الصلاة أو في الطواف أو في رمي الجمار أو في الذكر في كل مواطنه.

والجملة مركبة من كلمتين: من اسم الجلالة «الله» وهذه الكلمة اسم علم على الذات العلية كما هو معروف بالبديهة وبالفطرة.

قال العلماء: «الله» علم على الذات العلية

الواجبة الوجود المستحقة لجميع المحامد، أنزله على آدم في جملة الأسماء وهو أشهر أسمائه، ولهذا تأتي بعده أوصافا له، وقد قبض الله تعالى عنه الألسن فلم يسم به سواه عز وجل.

قال تعالى: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ٦٥﴾ [مريم: ٦٥] أي: هل تعلم أحدا تسمى الله؟ استفهاماً بمعنى النفي، وقد ذكر في القرآن الكريم ألفين وثلاث مائة وستين مرة. وهو أعرف المعارف وأتمها»[1].

وحين تنطق بكلمة «الله» احرص على أن تكون خارجة من قلبك لينتهي بها آخر نفسك فإن في ذلك عيشا مع معناها، وسترى تأثرا بها بالغاً لم تعهده من قبل، يشحذ همتك، ويزيد قوتك، ويخنس عدوك.

وكلمة «أكبر» بصيغة أفعل التفضيل معناها

(١) ينظر مقدمة الإتقان والأحكام بتصرف

أجل وأعظم، فقد كان ﷺ يقول: «سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة».[١]

وقال ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى: «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدا منهما أدخلته جهنم» [٢].

وهذه الجملة لا ينعقد الإحرام للصلاة إلا بها عند جمهور أهل العلم، وذلك لما نقل بالتواتر من فعله ﷺ المصاحب لقوله، حيث قال: «صلوا كما رأيتموني أصلي»[٣]، وقال ﷺ مفتاح الصلاة الطهور، وتحريمها التكبير وتحليلها التسليم.[٤]

وتأمل كيف ندبت لرفع اليد اليمنى إذا لم تستطع تقبيل الحجر، مشيرا إليه وأنت تسمي

(١) أخرجه أبو داود ٨٧٣، وصححه الألباني

(٢) أخرجه أبو داود ٤٠٩٢ ، وصححه الألباني

(٣) أخرجه البخاري ٦٣١

(٤) أخرجه أبو داود ٦١، وقال الألباني: حسن صحيح

وتكبر في الأولى، و تكبر في كل استفتاح شوط من الطواف، حتى تقضي أشواطك السبعة إلى أن تنتهي.. وإن كان لم يرد دعاء بعينه في الطواف سوى قولك ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٢٠١﴾ [البقرة: ٢٠١] تقوله في آخر كل شوط ما بين الركن اليماني والحجر الأسود، فإن ذلك يحفّزك على أن تجتهد في استحضار قلبك في كل خطواتك.

وسر بحذاء البيت جاعلاً إياه على يسارك، وطأطئ رأسك لربك خضوعاً، وسر بسكينة خشوعاً، فإن زحمك الناس فتذكر الحشر، وإن ضغطوك فتخيل القبر، وإن صلاك الحر والشمس والعطش فطر بقلبك إلى يوم المحشر، والناس لم يقض فيهم بشيء، وقد أخذ منهم العرق والخوف كل مأخذ، وتذكر أن هذا المقام عظيم، والحال

شديدة، فلا تغادره إلا وقد صحت: يااااالله رحماك رحماك.. يا الله من ذا يقربني إليك؟ فلا تبعدني.. يااااالله من ذا يؤويني؟ فلا تطردني.. يا الله.. يا الله.. يا الله.. وغب عن الخلق وكن مع الخالق.. رجاء.. ودعاء.. وأنينا.. وبكاء.. واستغفر مما لعله في ماضي السنين أرداك، وابحث لك عن عمل خالص عملته فاسأل الله به، ولا تنس من له فضل عليك؛ فتدعو له، واحمد الله على ما أنعم به عليك من تقريبك بعد أن بعدت، وإيوائك إذ كنت قد شردت!

فإذا قضيت فتوجه للمقام الكريم واتل: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥].

وهكذا فعل حبيبك الذي به تقتدي وله تتابع، ففي حديث جابر «استلم الرّكن فرمل ثلاثاً ومشى أربعاً، ثمّ نفذ إلى مقام إبراهيم عليه السّلام

فقرأ: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾، فجعل المقام بينه وبين البيت، كان يقرأ في الرّكعتين: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾[1].

واختر لنفسك مكانا تصلي فيه بطمأنينة، وإن كان بعيداً عن المقام، فإن تحصيل المقاصد مقدم على تتبع المقامات، دون تحقيق مقصدها؛ فلهذا فتنبه.

وصل ركعتين وأحضر فيهما قلبك كما سبق وقد بينت لك في كتاب «كيف تخشعين في الصلاة»[2] واقرأ في الركعة الأولى «الفاتحة» وسورة «الكافرون» وفي الثانية بـ «الفاتحة» و«الإخلاص».

واجتهد في الدعاء قدر ما تستطيع، ثم اشرب من الماء المبارك زمزم، وتضلع منه؛ حتى تروى، وتفتق أضلاعك منه، واعلم أن لك به دعوة

---

(١) حديث جابر أخرجه مسلم ١٢١٨

(٢) ينظر كتاب (كيف تخشعين في الصلاة) للمؤلفة

مستجابة.

وقد جاء في الحديث: «إنها لمباركة هي طعام طعم وشفاء سقم».[1]

وإني لأدعو الله أطلب عفوه

وأعلم أن الله يعفو ويغفر.

لئن أعظم الناس الذنوب فإنها

وإن عظمت في رحمة الله تصغر.

ثم توجه مرة أخرى للحجر واستلمه وقبله قبلة تعيد فيها روحك إلى هناك حيث الجنة والمقام الأول..

وعن ابن عمر قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن مسحهما -أي الركنين- يحطان الخطيئة» وسمعته يقول: «من طاف سبعا فهو كعدل رقبة»[2].

(١) أخرجه الطيالسي، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٤٢٠٠

(٢) أخرجه النسائي ٢٩١٩، وصححه الألباني.

وافعل كما فعل حبيبك (ثمّ رجع إلى الرّكن فاستلمه، ثمّ خرج من الباب إلى الصّفا، فلمّا دنا من الصّفا قرأ: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٥٨]، أبدأ بما بدأ اللهّ به، فبدأ بالصّفا).

وإني لأعلم أن الأمر جد شاق، وما إلى الوصول إليه سبيل في هذا الزحام الشديد، فلا يكلف الله نفسا إلا وسعها، لكن إن لم تقو على استلامه بجسدك وشفتيك فلا أقل من أن تعانقه بقلبك، وتتمنى لو خلي بينك وبينه؛ لتفعل ما فعل قدوتك وخليلك.

وعلى الصفا...

والتفت للصفا.. لأجيج المشاعر.. لخيال الذكريات.. وتخيل كم توجه لها من متوجه! وكم صعدها من مكبر! لكنهم ما كانوا يرون ما ترى.. وما يحسون بما تحس به، فقد خالط الوجد قلبك؛ حتى صعد قبل أن تصعد، وعلا خفقه قبل أن تعلو قدماك ذاك الجبل الذي علاه نبيك وذكر فيه قصة هاجر:

ففي البخاري من حديث ابن عباس ﷺ: «وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل، وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفد ما في السقاء عطشت، وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوَّى، أو قال: يتلبَّط، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت

الصفا أقرب جبلٍ في الأرض يليها، فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي؛ تنظر هل ترى أحداً، فلم ترَ أحداً؛ فهبطت من الصفا، حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها ثم سعت سعي الإنسان المجهود، حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة، فقامت عليها، ونظرت هل ترى أحداً، فلم ترَ أحداً؛ ففعلت ذلك سبع مرات. قال ابن عباس رضي الله عنهما: قال النبي ﷺ ذلك سعي الناس بينهما».[1]

والفعل وإن كان فيه محاكاة لأفعال هاجر من لدن رسول الله ﷺ، فإننا إنما نتأسى بالحبيب الذي أمرنا باتباعه، كما جاء في حديث جابر: (ثمّ خرج من الباب إلى الصّفا، فلمّا دنا من الصّفا قرأ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨]، أبدأ بما بدأ اللهّ به، فبدأ بالصّفا).

(١) برقم ٣٣٦٤

وفي هـذه الكلمـة «أبـدأ بـما بـدأ الله بـه» لطيـف معنـى وهـو تتبـع المسـلك القـرآني والسـير وفقـه، فلـم يـا تـرى قـدم الصفـا؟

الله أعلـم.. عليـك أن تبـدأ بـما بـدأ الله بـه فحسـب! علمـت لم أم لم تعلـم!

فـإذا علـوت الجبـل ولاحـت لـك الكعبـة وأنـت تسـتقبلها فقـف مسـتحضرا موقـف نبيـك وحبيبـك وتذكـر تلـك النظرات التـي كانت ترسـلها أم إسـماعيل في لهفـة؛ لـترى شـخص إنسـان ولـو خيـالا، يقـرب لهـا الحيـاة، ويباعدهـا عـن شـبح المـوت والهلكـة، في واد غـير ذي زرع، بـلا أنيـس ولا مرافـق غـير وليـد أخـذ منـه العطـش كل مأخـذ! في جبـال سـوداء، وحـر شـديد، وشـمس محرقـة، ولهيـب الشـمس يصنـع مـن السـراب خيـالات تلـوح لـكل متمسـك بالحيـاة يتمنـى أن يجـد لهـا معلـما ولـو في السـراب.

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى

وصَوّت إنسانٌ فكدت أطير

(فبدأ بالصّفا، فرقى عليه، حتّى رأى البيت فاستقبل القبلة، فوحّد اللهّ وكبّره، وقال: «لا إله إلّا اللهّ وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كلّ شيء قدير، لا إله إلّا اللهّ وحده، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده».

وادع بما شئت، وبما كنت ترجوه، وتلحّ به، و توصي به كل من حج من أحبابك، فها أنت الآن بين يديه، ويداه لك مبسوطة، ومقبل عليك، يقول لك سل ما شئت. فاغرف من فضله ما شئت أن تغرف، وتزود لشديد حياتك ما استطعت أن تتزود؛ فإن الرحلة طويلة والفتن كثيرة، والمشاغل مذهبة للعقل، وزماننا هذا أولى بأن تطوي فيه قلبك على الاستعانة بتوفيق الله وهدايته، فهو زمان القابض فيه على دينه كالقابض على الجمر!

تسير على رخام بارد ولو تعبت لركبت، ولو عطشت لشربت، فكيف بتلك الأقدام الحافية! والشمس الحارقة! والصخور الحادة! كيف وقد استحالت دما من حر الرمضاء! ووعورة المسلك! في لهف على قلب ذاك الوليد حين تنزل للوادي؛ فيقترب القلب من القلب؛ ليتحسس هل ما زال النفس يربو.. ثم تحث الخطا إلى المروة؛ لتنظر من زاوية أخرى، فلعل شخصا يزاول، ولو طيفا.. فلا تجد أحداً، فيأخذ القلق بالقلب كل مأخذ، تعاود الكرة المرة بعد المرة..كل ذلك الطيف لتلك المرأة الشريفة، والأمة الضعيفة؛ حرم أبيك خليل الله، يعرض لك في مسعاك، وما تزال تسعى متتبعا هدي نبيك محمد ﷺ، فتمشي إذ مشى، وتهرول إذ هرول، وتقف إذ وقف.

وتأمل كم يقشبك الحر! وكم يؤذيك الزحام!

وكم تتوق نفسك للوصول لعلم المروة؛ لتكمله شوطا وأنت في أنس وأنيس! فكيف بها تلك إذ ذاك!!

وهذا كان فعل نبيك وخليلك (ثمّ دعا بين ذلك، قال مثل هذا ثلاث مرّات، ثمّ نزل إلى المروة، حتّى إذا انصبّت قدماه في بطن الوادي سعى، حتّى إذا صعدتا مشى، حتّى أتى المروة ففعل على المروة كما فعل على الصّفا).

فإذا فعلت ذلك فاحمد الله أن بلغك تمام عمرتك التي تمتعت بها إلى الحج، وقصّر شعرك، وتحلل من كل شيء حرم عليك قبل، وتأمل كيف التزمت لله، محلّا لك، ومحرما عليك في زمن قصير وشدة من أجلها جئت إلى البلد الحرام!

وتذكر أنك أيضا في عبادة بشريعة تحلل لك وتحرم عليك طوال عمرك ومن أجلها جئت إلى هذه الحياة الدنيا ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

ودنا اللقاء.. يوم التروية.. يوم الاستعداد

كـم تاقـت قسـمات وجهـك لابتسـامة تغذوهـا الخطـرة باللقـاء لذلـك اليـوم المشـهود!

فظللـت تتهيـأ وتسـتعد لتلقـاه.. هنـاك.. في عرفـات.. لكـن ليـس بعـد.. عليـك أن تتخـذ لذلـك اليـوم اسـتعدادك وتأهبـك.. فدونـك يـوم بتمامـه وكمالـه.. أعـدّ نزلـك.. حـضّر منزلـك بـلا تكلـف.. أعـدّ مـا تحتـاج إليـه مـن طعـام وفـراش وخيمـة..

تغسّـل.. تطيّـب.. أعـدّ نفسـك مـرة أخـرى للإحـرام، واسـتعدّ للقـاء، ولكـن هـذه المرة لـن تكون وحـدك، ولـن تقـف وحـدك، ولـن تقـدم وحـدك، بـل سـتكون في كل الحجيـج.. فتهيـأ لذلـك.

(فلـمّا كان يـوم التّرويـة توجّهـوا إلى منـى، فأهلّـوا بالحـجّ، وركـب رسـول اللهّ ﷺ، فصـلّى بهـا الظّهـر والعـصر والمغـرب والعشـاء والفجـر، ثـمّ مكـث قليـلا حتّـى طلعـت الشّـمس).

إلى عرفات..

(وأمر بقبّة من شعر، تضرب له بنمرة ، فسار رسول الله ﷺ، ولا تشكّ قريش إلّا أنّه واقف عند المشعر الحرام، كما كانت قريش تصنع في الجاهليّة، فأجاز رسول اللهّ ﷺ حتّى أتى عرفة، فوجد القبّة قد ضربت له بنمرة، فنزل بها، حتّى إذا زاغت الشّمس أمر بالقصواء، فرحّلت له، فأتى بطن الوادي، فخطب النّاس وقال: «إنّ دماءكم وأموالكم حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا كلّ شيء من أمر الجاهليّة تحت قدميّ موضوع، ودماء الجاهليّة موضوعة، وإنّ أوّل دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث، كان مسترضعاً في بني سعد فقتلته

هذيل، وربا الجاهليّة موضوع، وأوّل ربا أضع ربانا، ربا عبّاس بن عبد المطّلب، فإنّه موضوع كلّه، فاتّقوا اللهّ في النّساء، فإنّكم أخذتموهنّ بأمان اللهّ، واستحللتم فروجهنّ بكلمة اللهّ، ولكم عليهنّ أن لا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهنّ ضربا غير مبرّح، ولهنّ عليكم رزقهنّ وكسوتهنّ بالمعروف، وقد تركت فيكم ما لن تضلّوا بعده، إن اعتصمتم به كتاب الله، وأنتم تسألون عنّي، فما أنتم قائلون؟» قالوا: نشهد أنّك قد بلّغت وأدّيت ونصحت، فقال بإصبعه السّبّابة يرفعها إلى السّماء وينكتها إلى النّاس: «اللّهمّ اشهد، اللّهمّ اشهد، ثلاث مرّات».

ثمّ أذّن، ثمّ أقام فصلّى الظّهر، ثمّ أقام فصلّى العصر، ولم يصلّ بينهما شيئا، ثمّ ركب رسول اللهّ ﷺ حتّى أتى الموقف، فجعل بطن ناقته القصواء إلى

الصّخرات، وجعل حبل المشاة بين يديه، واستقبل القبلة فلم يزل واقفا حتّى غربت الشّمس، وذهبت الصفرة قليلاً حتّى غاب القرص، وأردف أسامة خلفه)[1].

(١) من حديث جابر عند مسلم.

عرفات.. والحشر

أتعلم... أنك تلبس كفنك مرتين...الأولى عند موتك، وحين تجهيزك لقبرك، ومثله يوم إحرامك الأول.. هناك حيث حططنا المطيّ.. ثم ارتحلنا... وهنا حيث انتهت بك الرحلة الأولى، وخرجت منها أنت وأنا حفاة عراة غرلاً... فإذا كنا هكذا كسينا مرة أخرى بالأكفان التي كفنا فيها في حياتنا الدنيا، فيكون أول من يكسى إبراهيم الخليل، ويقال لأنه أول من لبس السراويل، وربما لأنه هو صاحب الشعار الأول؛ شعار بناء البيت الحرام والحج له!

فالله أعلم بالمراد..

ولذا أمر بإحسان الكفن؛ لأنه سيبعث فيه

قال النبي ﷺ: «إذا كفن أحدكم أخاه فليحسن كفنه»[1]، والمراد بإحسان الكفن نظافته وستره وتوسطه، وعن أبي سعيد الخدري أنه لما حضره الموت دعا بثياب جدد فلبسها ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الميت يبعث في ثيابه التي يموت فيها»[2].

عن سهل رضي الله عنه: (أن امرأة جاءت النبي ﷺ ببردة منسوجة فيها حاشيتها، أتدرون ما البردة؟ قالوا: الشملة، قال: نعم، قالت: نسجتها بيدي فجئت لأكسوكها، فأخذها النبي ﷺ محتاجاً إليها، فخرج إلينا وإنها إزاره، فحسَّنها فلان فقال: اكسُنيها ما أحسنها! فقال القوم: ما أحسنت، لبسها النبي ﷺ محتاجاً إليها وعلمت أنه لا يرد، قال: إني والله ما سألته لألبسها، إنما سألته لتكون كفني، قال

(١) أخرجه مسلم برقم ٩٤٣

(٢) أخرجه أبو داود ٣١١٦، وصححه الألباني

سهل: فكانت كفنه)[1]، ولعله لأجل ذلك يكفن الحاج فيما مات فيه من إحرام أو على نسقه في ثوبين بلا طيب؛ لأنه يبعث يوم القيامة ملبيا.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (بينما رجل واقف مع رسول الله ﷺ بعرفة إذ وقع من راحلته؛ فأقصعته، أو قال: فأقعصته، فقال رسول الله ﷺ: اغسلوه بماء وسدر، وكفنوه في ثوبين، ولا تحنطوه، ولا تخمروا رأسه؛ فإن الله يبعثه يوم القيامة ملبيا)[2].

فتأمل قدومك على الله ذلك اليوم ملبيا محرما، تسير وسط الحجيج والضجيج، والناس لهم زفة إلى هناك، يأخذون مقاعدهم، بل مواقفهم، ويتراصون حتى لا تكاد ترى رأس صخرة إلا وجدت عليها إنساناً، ولا تفترّ عينك إلى موطئ قدم إلا رأيت فيه

(١) أخرجه البخاري برقم ١٢٧٧

(٢) أخرجه البخاري برقم ١٢٦٥، ومسلم برقم ١٢٠٦

ملبيا قائما أو قاعدا، في منظر مهيب، ولا تكاد ترى إلا محرمًا...

ما أشبه هذا الموقف بالحشر! تأتيه ملبيا الدعوة التي أذّن فيك بها فجئت باختيارك وخلفت كل دنياك وراءك، ولم تجلب منها إلا ما فيه زهدت!

ما أشبه هذا المقدم بمقدم الحشر ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ ﴾ [الإسراء:٥٢] وهنا علي أن أتوقف!

وهنا عليك أن تعيش معي هذه اللحظات!

عليك أن تعيشها حقا بلبك وتصورك، فلست عنها ببعيد، عشها الآن ما دامت فرصة النجاة قبل أن تسدّ الطرق، ولات حين مناص!

هل تعرف على أي قارعة سأتوقف؟

سأتوقف أنا وأنت على قارعة الحشر... هنا...

في عرفة... حيث دعاك الله لتقف... حيث دعاك؛ لترجع بدرس لا تنساه أبدا، فما بالك لا تعقله كما أراده الله لك!

تأمل أحيي قلبك بهذا الآية التي أنهيت بها آيات الحج في سورة البقرة دعنا نقف عليها وقفة تحيي قلوبنا : ﴿ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾ [البقرة: ٢٠٣].

ألا تتساءل لم ختمها الله بقوله:﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾..

ختمها بذلك لتذكر الحشر... فإن كنت لا تعلم ماذا فيه فتعال أنقلك إلى هناك حيث التصوير القرآني والوصف النبوي بالوحي الصادق...

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ

أَوَّلَ مَرَّةٍۚ بَلۡ زَعَمۡتُمۡ أَلَّن نَّجۡعَلَ لَكُمۡ مَّوۡعِدٗا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ﴿٤٩﴾ ﴾ [الكهف: ٤٧ - ٤٩].

إنه مشهد تشترك فيه الطبيعة، ويرتسم الهول فيه على صفحاتها، وعلى صفحات القلوب مشهد تتحرك فيه الجبال الراسخة فتسير، فكيف بالقلوب، وتتبدى فيه الأرض عارية، وتبرز فيه صفحتها مكشوفة لا نجاد فيها ولا وهاد، ولا جبال فيها ولا وديان. وكذلك تتكشف خبايا القلوب فلا تخفى منها خافية.

ومن هذه الأرض المستوية المكشوفة التي لا تخبئ شيئاً، ولا تخفي أحداً: ﴿ وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا ﴿٤٧﴾ ﴾ [الكهف: ٤٧].

ومن الحشر الجامع الذي لا يخلف أحداً إلى

العرض الشامل: ﴿ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا ﴾ [الكهف: ٤٨]، هذه الخلائق التي لا يحصى لها عدد، منذ أن قامت البشرية على ظهر هذه الأرض إلى نهاية الحياة.. هذه الخلائق كلها محشورة مجموعة مصفوفة، لم يتخلف منها أحد، فالأرض مكشوفة مستوية لا تخفي أحداً.

وهنا يتحول السياق من الوصف إلى الخطاب. فكأنما المشهد حاضر اللحظة، شاخص نراه ونسمع ما يدور فيه. ونرى الخزي على وجوه القوم الذين كذبوا بذلك الموقف وأنكروه: ﴿ لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ ﴾ [الكهف: ٤٨].

هذا الالتفات من الوصف إلى الخطاب يحيي المشهد ويجسمه، كأنما هو حاضر اللحظة، لا مستقبلا في ضمير الغيب في يوم الحساب.

وإننا لنكاد نلمح الخزي على الوجوه، والذل

في الملامح. وصوت الجلالة الرهيب يجبه هؤلاء المجرمين بالتأنيب: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُمْ مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾﴾ [الكهف: ٤٨] وكنتم تزعمون أن ذلك لن يكون: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُمْ مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾﴾ [الكهف: ٤٨]!

وبعد إحياء المشهد واستحضاره بهذا الالتفات من الوصف إلى الخطاب يعود إلى وصف ما هناك: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾[الكهف: ٤٩].

فهذا هو سجل أعمالهم يوضع أمامهم، وهم يتملونه ويراجعونه، فإذا هو شامل دقيق. وهم خائفون من العاقبة ضيقو الصدور بهذا الكتاب الذي لا يترك شاردة ولا واردة، ولا تندّ عنه كبيرة ولا صغيرة: ﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ وهي مقولة المحسور المغيظ الخائف المتوقع لأسوأ العواقب، وقد ضبط

مكشـوفاً لا يملـك تفلتـا ولا هربـاً، ولا مغالطـة ولا مـداورة: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا﴾ ولاقـوا جـزاء عـادلاً: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾.

هـؤلاء المجرمـون الذيـن وقفـوا ذلـك الموقـف كانـوا يعرفـون أن الشـيطان عـدو لهـم، ولكنهـم تولـوه فقادهـم إلى ذلـك الموقـف العصيـب. فـما أعجـب أن يتولـوا إبليـس وذريتـه وهـم لهـم عـدو منـذ مـا كان بـين آدم وإبليـس: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ [الكهـف: ٥٠].

وهـذه الإشـارة إلى تلـك القصـة القديمـة تجـيء هنـا للتعجيـب مـن أبنـاء آدم الذيـن يتخـذون ذريـة إبليـس أوليـاء مـن دون الله بعـد ذلـك العـداء القديـم.

واتخاذ إبليس وذريته أولياء يتمثل في تلبية دواعي المعصية والتولي عن دواعي الطاعة.

ولماذا يتولون أعداءهم هؤلاء، وليس لديهم علم ولا لهم قوة. فالله لم يشهدهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم فيطلعهم على غيبه. والله لا يتخذهم عضداً فتكون لهم قوة: ﴿ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ﴿٥١﴾ ﴾ [الكهف: ٥١].

إنما هو خلق من خلق الله، لا يعلمون غيبه، ولا يستعين بهم سبحانه.. ﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ﴾ فهل يتخذ الله سبحانه غير المضلين عضداً؟

وتعالى الله الغني عن العالمين، ذو القوة المتين.. إنما هو تعبير فيه مجاراة لأوهام المشركين؛ لتتبعها واستئصالها. فالذين يتولون الشيطان ويشركون به مع الله، إنما يسلكون هذا المسلك توهماً منهم

أن للشـيطان علـماً خفيـاً، وقـوة خارقـة. والشـيطان مضـل، والله يكـره الضـلال والمضلـين. فلـو أنـه عـلى سـبيل الفـرض والجـدل كان متخـذاً لـه مسـاعدين، لما اختارهـم مـن المضلـين!

وهذا هو الظل الذي يراد أن يلقيه التعبير..

ثـم يعـرض مشـهدا مـن مشـاهد القيامـة يكشـف عـن مصـير الـشركاء ومصـير المجرمـين:

﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ ﴾ [الكهف: ٥٢ - ٥٣].

إنهـم في الموقـف الـذي لا تجـدي فيـه دعـوى بـلا برهـان. والديـان يطالبهـم أن يأتـوا بشركائهـم الذيـن زعمـوا، ويأمرهـم أن يدعوهـم ليحضروا.. وإنهـم لفي ذهـول ينسـون أنهـا الآخـرة، فينـادون. لكـن الـشركاء

لا يجيبون! وهم بعض خلق الله الذين لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم شيئاً في الموقف المرهوب. وقد جعل الله بين المعبودين وعبادهم مهلكة لا يجتازها هؤلاء ولا هؤلاء.. إنها النار ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾.

ويتطلع المجرمون، فتمتلئ نفوسهم بالخوف والهلع، وهم يتوقعون في كل لحظة أن يقعوا فيها. وما أشق توقع العذاب وهو حاضر، وقد أيقنوا أن لا نجاة منها ولا محيص: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾.

ولقد كان لهم عنها مصرف، لو أنهم صرفوا قلوبهم من قبل للقرآن، ولم يجادلوا في الحق الذي جاء به، وقد ضرب الله لهم فيه الأمثال ونوعها لتشمل جميع الأحوال: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾ [الكهف: ٥٤].

ويعبر السياق عن الإنسان في هذا المقام بأنه ﴿ شَيۡءٍ ﴾ وأنه أكثر شيء جدلا. ذلك كي يطامن الإنسان من كبريائه، ويقلل من غروره، ويشعر أنه خلق من مخلوقات الله الكثيرة. وأنه أكثر هذه الخلائق جدلاً. بعد ما صرف الله في هذا القرآن من كل مثل..» [1].

إذن هذه الحكمة عليك أن لا تتجاوزها وعليك أن تقف عليها كثيرا فهي مدرسة عرفة العظمى، وليتك إذ تقرأ سورة الكهف، تقرأ بقلبك لا بلسانك، فإن سبق العهد بتكرار السورة كل جمعة؛ قد يفوت عليك تأمل هذا الملمح، وحينها سيفوتك شيء كثير فتنبه! وتذكر أنك ما زلت في الحياة الدنيا ولم تكبل في الحشر الحقيقي بعد!

والذي أوقفك هذا الموقف، ووعظك تلك

(١) في ظلال القرآن سورة الكهف

الموعظة البليغة رحيم بك ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ﴾ [الكهف: ٥٨].

ولكن الله يمهلهم رحمة بهم، ويؤخر عنهم الهلاك الذي يستعجلون به، ولكنه لن يهملهم: ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ۚ﴾.

موعد في الدنيا يحل بهم فيه شيء من العذاب. وموعد في الآخرة يوفون فيه الحساب.

ولقد ظلموا فكانوا مستحقين للعذاب أو الهلاك كالقرى قبلهم. لولا أن الله قدر إمهالهم إلى موعدهم، لحكمة اقتضتها إرادته فيهم، فلم يأخذهم أخذ القرى؛ بل جعل لهم موعداً آخر لا يخلفونه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يحشر الناس على ثلاث طرائق: راغبين راهبين، واثنان

على بعير وثلاثة على بعير وأربعة على بعير وعشرة على بعير، وتحشر بقيتهم النار؛ تبيت معهم حيث باتوا، وتقيل معهم حيث قالوا، وتصبح معهم حيث أصبحوا، وتمسي معهم حيث أمسوا»[1].

(١) رواه البخاري برقم ٦٥٢٢، مسلم ٢٨٦١

اختلف العلماء في المراد بالحشر في هذا الحديث وما رووه في بابه كحديث أبي ذرٍّ قال: «إِنَّ الصَّادِقَ الْمَصْدُوقَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَدَّثَنِي أَنَّ النَّاسَ يُحْشَرُونَ ثَلَاثَةَ أَفْوَاجٍ فَوْجٌ رَاكِبِينَ طَاعِمِينَ كَاسِينَ وَفَوْجٌ تَسْحَبُهُمْ الْمَلَائِكَةُ عَلَى وُجُوهِهِمْ وَتَحْشُرُهُمْ النَّارُ وَفَوْجٌ يَمْشُونَ وَيَسْعَوْنَ يُلْقِي اللهُ الْآفَةَ عَلَى الظَّهْرِ فَلَا يَبْقَى حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَتَكُونُ لَهُ الْحَدِيقَةُ يُعْطِيهَا بِذَاتِ الْقَتَبِ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا»، هل المراد بالحشر ما يكون في آخر الزمان قبل قيام الساعة أم المراد ما يكون بعد البعث، واختار النسائي أن المراد بهذه الأحاديث الحشر بعد النشور، لذا بوَّب له باب «البعث»، واختار غيره الأول، قال الخطابي: هذا الحشر يكون قبل قيام الساعة، قال بعض شراح المصابيح: حمله على الحشر من القبور أقوى من أوجه: أحدها أن الحشر إذا أطلق في عرف الشرع إنما يراد به الحشر من القبور ما لم يخصه دليل ثانيها أن هذا التقسيم المذكور في الخبر لا يستقيم في الحشر إلى أرض الشام لأن المهاجر لا بد أن يكون راغبا أو راهبا أو جامعا بين الصفتين فإما أن يكون راغبا راهبا فقط وتكون هذه طريقة واحدة لا ثاني لها من جنسها فلا

ثالثها حشر البقية على ما ذكر وإلجاء النار لهم إلى تلك الجهة وملازمتها حتى لا تفارقهم قول لم يرد به التوقيف وليس لنا أن نحكم بتسليط النار في الدنيا على أهل الشنوة من غير توقيف

رابعها أن الحديث يفسر بعضه بعضا . وقد وقع في الحسان من حديث أبي هريرة وأخرجه البيهقي من وجه آخر عن علي بن زيد عن أوس بن أبي أوس عن أبي هريرة بلفظ « ثلاثا على الدواب وثلاثا ينسلون على أقدامهم وثلاثا على وجوههم « قال : ونرى أن هذا التقسيم الذي وقع في هذا الحديث نظير التقسيم الذي وقع في تفسير الواقعة في قوله تعالى (وكنتم أزواجا ثلاثة) الآيات. ا.هـ. فتح الباري لابن حجر (١٨/ ٣٦٧).

فالنـاس يحـشرون قبـل يـوم القيامـة، عـلى ثـلاث طرائـق هـي:

الطريقــة الأولى: «راغبــين راهبــين» وهــؤلاء يذهبـون إلى محشرهـم، طائعـين مختاريـن، دون إجبـار أو إكـراه، وهـم في سـعة مـن الأمـر، يركبـون دوابهـم دون مضايقــة أو إزعــاج، وكأن شــيئا لم يكــن

قلـت: وإلى هـذا الـرأي أميـل، لا سـيما وقـد جـاء في حديـث أبي ذر (وفـوج تسـحبهم الملائكـة عـلى وجوههـم)، فهـذا مـن اختصـاص يـوم القيامـة، كـما جـا في قولـه تعـالى: (وَنَحْشُرُهُـمْ يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ عَـلَى وُجُوهِهِـمْ عُمْيًـا وَبُكْـمًا وَصُـمًّا مَأْوَاهُـمْ جَهَنَّـمُ كُلَّـمَا خَبَـتْ زِدْنَاهُـمْ سَـعِيرًا (٩٧) الإسراء.

ويفـسر هـذه الآيـة مـا أخرجـه النسـائي في الكـبرى مـن حديـث أنـس أن رجـلا قـال : يـا رسـول الله كيـف يحـشر النـاس عـلى وجوههـم قـال: «إن الـذي أمشـاهم عـلى أقدامهـم قـادر أن يمشـيهم عـلى وجوههـم» (٦/ ٤٢٠) ١١٣٦٧، وظاهـر هـذا الحديـث أنـه الحـشر في الآخـرة، وعـلى كل حـال فـإن الموقـف بعرفـة يذكـر بالموقـف الرهيـب العصيـب الـذي يحـشر فيـه النـاس في حـال يشـغلهم عـن تفقـد بعضهـم، أو تحمـل تبعاتهـم فضـلا عـن تبعـات غيرهـم، وتظهـر فيـه الـبراءة مـن الدنيـا والزهـد فيهـا، حتـى لا يُلتفـت إلى مـال أو متـاع، فمـن خطـر لـه هـذا الموقـف واسـتمكن الشـعور منـه غمـره الحـزن وغلبـه البـكاء، وعـلاه التـضرع وخالطتـه الخشـية، ونكـس رأسـه الإخبـات فلـم يـرَ إلا مـولاه، ولم يسـأل إلاه، وكأنـما ذنوبـه بـين عينيـه يريـد الـبراءة منهـا، فيرجـو الخـلاص فتكـون كلمـة الاسـتغفار والتوبـة خارجـة مـن قلبـه بحرقـة دمعـه، وزفـرة نفَسـه، وحينهـا لـن تخطـر ببالـه معاودتهـا، وحـريٌّ بهـذه التوبـة الصادقـة أن تقبـل، ولصاحبهـا أن يعفـى عنـه، فالغفـور الرحيـم سـبقت رحمتُـه غضبَـه، فـما أعظمـه ومـا أحلمـه ومـا أكرمـه، لا سـيما وهـو يـرى شـعث عبـاده وضحاهـم وتضرعهـم، فاللهـم ارحمنـا.

الطريقة الثانية: يكون الأمر قد ضاق بالناس، ولكن ما زال هناك في الأمر متسع؛ «فيذهب اثنان على بعير، وثلاثة على بعير، وأربعة على بعير، وعشرة على بعير».

الطريقة الثالثة: يشتد الضيق على الناس؛ «وتحشر بقيتهم النار؛ تبيت معهم حيث باتوا، وتقيل معهم حيث قالوا، وتصبح معهم حيث أصبحوا، وتمسي معهم حيث أمسوا».

وهل يستطيع إنسانٌ أن يقيل أو يبيت أو يصبح أو يمسي، وهو يرى النار تحشره إلى محشره !؟

ولعل من سبل النجاة من كرب الحشر وضنكه الإقبال عليه في سعة منه في الحياة الدنيا بالقدوم عليه في الحج، وتحمل متاعبه ومصاعبه، والتأمل وأخذ الحذر، قبل العطب والكدر.

فإن المخافة أن يفجأ العبد بالموت فلا يكون قد استعد فيكون حظه الحشر بالطريقة المهينة ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [الإسراء: ٩٧]. «وهذا جزاء مناسب للجرم؛ لأنهم روجوا الضلالة في صورة الحق، ووسموا الحق بسمات الضلال، فكان جزاؤهم أن حولت وجوههم أعضاء يمشى عليها عوضا عن الأرجل، ثم كانوا عميا وبكما جزاء أقوالهم الباطلة على الرسول، وعلى القرآن، وصما جزاء امتناعهم من سماع الحق، كما قال تعالى عنهم ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥]، وقال عنهم: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه: ١٢٥-١٢٦]، وقال عنهم: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ

سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ ﴾[الإسراء: ٧٢] أي من كان أعمى عن الحق فهو في الحشر يكون محروماً من متعة النظر، وهذه حالتهم عند الحشر»[1].

فإذا دارت في خلدك تلك المعاني، وأدركت أنك مأخوذ بجرمك، فتوقف عن النفس إن استطعت، وابك نفسك، واندبها، فقد والله استحقت ذلك، وأر الله منك توبة صادقة، ومرر شريط ذكرياتك مع الذنوب والمعاصي في لحظة توبة وإخبات وندم وقلق، وليكن ذلك في جميع حالاتك وأنت ساجد وأنت قارئ وأنت راكع وأنت ساكت وأنت ذاكر وأنت مضطجع وأنت جالس، وليكن ذلك منك أبلغ ما يكون إذا قمت بين يدي مولاك في ساعات الدعاء خاصة أول العصر.. وأنت ترى أن الوقت أزف ولم تر من نفسك ما يحنن عليك مولاك، فما زالت العين ما توكفت، وما زال القلب ما اعتصر

(١) التحرير والتنوير ٢١٧

بالصياح، فكيف به لو استيقظ من غفلته، فوجدها في يوم الحشر، وهي بين يدي مولاها، يذكرها بالذنوب ذنبا ذنبا، وقد أدنى عليك كنفه؛ لئلا يسمعه غيرك، فعن ابن عمر قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ، فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ، فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُونَ فَيَقُولُ الْأَشْهَادُ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ»[1].

فإذا ذكرت ذلك، وتخيلت المشهد، واستحضرته، فإن استطعت أن تموت فمت!

(١) البخاري ٢٤٤١ ومسلم ٢٧٦٨

يا الله كيف أقف بين يديك بذنوبي!

يا الله كيف أواجهك بسوءتي!

يـا الله كيـف كنـت أعصيـك وأنـا أعلـم أنهـا لا تخفـى عليـك خافيـة!

الحج عرفة..الدعاء هو العبادة

وهنا وقفة تأمل..فـ«الحج عرفة» فمن لم يقف بعرفة لم يحج ولا يصح حجه ولا يجبر بشيء بالإجماع.. وإن عرفة هو يوم الدعاء فمنذ أن تصبح تفتتح يومك بالذكر؛ فعرفة يوم الدعاء والضراعة، يوم الابتهال والمناجاة، يوم التوجه والتمرغ، يوم النحيب والإلحاح! يوم نلظّ فيه بيا ذا الجلال والإكرام.

ولذا بين النبي ﷺ أن خير الدعاء ما كان يوم عرفة فقال عليه الصلاة والسلام: «أفضل الدعاء دعاء يوم عرفة»[1].

قال الباجي: «أي أعظمه ثواباً، وأقربه إجابة»،

(١) رواه مالك برقم (٧٢٦) وحسنه الألباني

وقريباً من هذا التفسير نص عليه صاحب المنتقى إذ يقول مجلياً معنى الحديث: «يريد ﷺ أنه أكثر ثواباً للداعي، وأقرب إلى الإجابة، فإن الفضل للداعي إنما هو في كثرة الثواب، وكثرة الإجابة»، ولذا كان النبي ﷺ يحيي يوم عرفة بالضراعة والابتهال، ثبت من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ قال: «خير الدعاء دعاء يوم عرفة، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير»[(١)].

ويستحب للحاج الإكثار من التهليل والتكبير يوم عرفة، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «كنا مع رسول الله ﷺ في غداة عرفة، فمنّا المكبر، ومنا المهلل..»[(٢)].

(١) رواه الترمذي برقم (٣٥٨٥)، وحسنه الألباني

(٢) رواه مسلم برقم (١٢٨٤).

والتهليل والتكبير دعاء؛ لأنه بمنزلة استجلاب لطف الله تعالى ولذا كان السلف يفضِّلون التكبير يوم عرفة كما يقول محمد بن سيرين: «حججت زمن ابن الزبير فسمعته يوم عرفة يقول: ألا وإن أفضل الدعاء اليوم التكبير، وهذا على الأفضل عنده، والله أعلم».

وعن وبرة قال: «سألت ابن عمر عن التلبية يوم عرفة، فقال: التكبير أحب إلي».

وتشرع التلبية للمحرم متى أهل بالحج، فيلبي عند اجتماع الرفاق، أو متى علا شرفاً، أو هبط وادياً، وفي أدبار الصلوات، وإقبال الليل، وإدبار النهار، ولا يقطعها إلا عند ابتداء رمي جمرة العقبة يوم النحر كما نص على ذلك جمهور الفقهاء، ومن جملة تلك المواطن التي تتأكد فيها التلبية يوم عرفة، فعن ابن عباس: «أنَّ أسامة ابن زيد

كان رِدْف النبـي ﷺ مـن عرفـة إلى المزدلفـة، ثـم أردف الفضـل مـن المزدلفـة إلى منـى، قـال: فكلاهمـا قـالا: لم يـزل النبــي ﷺ يلبِّـي حتَّــى رمـى جمـرة العقبــة»[1].

قــال ابــن بــاز رحمــه الله: «ويبقــى فيهــا (أي: في عرفـة) إلى غـروب الشــمس مشـتغلاً بالذكـر، والدعاء، وقــراءة القــرآن، والتلبيــة؛ حتــى تغيــب الشــمس، ويــشرع الإكثــار مــن قــول: لا إلــه إلا الله وحــده لا شريــك لــه... ».

وكلــما كان الحــاج عالمــا بمعــاني الذكــر كان أكثــر خشــوعا وإخباتــا وأكثــر تمســكاً بهــا وترديــداً لهــا مــن قلــب صــادق ملــح مخلـص، فإنــما يتقبـل الله مــن المتقــين.

وهــذا يــوم عرفــة يــوم يتجـلى فيــه معنــى الملــك... فلــو أن إنســاناً كان لــه مــن العبيــد مائــة أو ألــف،

(١) رواه البخاري برقم (١٦٨٧)، ومسلم برقم (١٢٨١).

جاؤوا له طائعين مذعنين، وهو لا يملك لهم حياة ولا موتا لكان ذلك ملكا مشهودا، فكيف بمن جاءه عبيده بالملايين مذعنين منقادين محبين وجلين! وهو لهم مالك، وفيهم متصرف، بيده الحياة والموت والنشور، فحُقَّ أن يقال فيه له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير.

فينبغي في موقف عرفة الإكثار من الأذكار والأدعية الواردة في الشرع في كل وقت، لاسيما في هذا الموضع، وفي هذا اليوم العظيم، وعلى العبد أن يختار جوامع الذكر والدعاء.

الجبار.. ويوم الجمع

يوم مغفرة الذنوب، والعتق من النار، والمباهاة بأهل الموقف، فما أجلّه من يوم؛ وما أعظمه من موقف؛ يوم يدنو الجبار فيه إلى عباده، ويرى قربهم، ويرحم شعثهم وعبراتهم، ويسمع نحيبهم وإلظاظهم بيا ذا الجلال والإكرام، وهل ثمّ أكرم منه؟ وهل ثمّ أجلّ منه؟

فالجواب معلوم من رب رحيم.. قد غفرت لهم قد غفرت لهم.. قال عليه الصلاة والسلام: «ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبداً من النار من يوم عرفة، وإنه ليدنو ثم يباهي بهم الملائكة فيقول ما أراد هؤلاء»[1]، وقال في حديث آخر: «إن

(١) رواه مسلم ١٣٤٨.

الله يباهي بأهل عرفات أهل السماء، فيقول لهم انظروا إلى عبادي جاؤوني شعثًا غبرًا»[1].

(١) رواه أحمد ٨٠٣٣، وصححه الأرنؤوط

السلف.. وعرفة

كان حكيم بن حزام يقف بعرفة ومعه مائة بَدَنة مقلدة ومائة رقبة فيعتق رقيقه، فيضج الناس بالبكاء والدعاء، يقولون: ربنا هذا عبدك قد أعتق عبيده، ونحن عبيدك فأعتقنا! وجرى للناس مرة مع الرشيد نحو هذا.

* وقف مُطَرِّف بن الشِّخِّير وبكر المزني بعرفة، فقال أحدهما: اللهم لا ترد أهل الموقف من أجلي!

وقال الآخر: ما أشرفه من موقف، وأرجاه لأهله لولا أني فيهم!

يا لتواضع الصالحين!

ويا لأدبهم مع ربهم وخوفهم مع حسن سيرتهم!

* وقف الفضيل بعرفة والناس يدعون، وهو يبكي بكاء الثكلى المحترقة، قد حال البكاء بينه وبين الدعاء، فلما كادت الشمس أن تغرب رفع رأسه إلى السماء وقال: واسوءتاه منك وإن عفوت!

قال ابن المبارك: جئت إلى سفيان الثوري عشية عرفة و هو جاث على ركبتيه، و عيناه تهملان، فقلت له: من أسوأ هذا الجمع حالا؟ قال: الذي يظن أن الله لا يغفر لهم!

وروي عن الفضيل أنه نظر إلى تسبيح الناس وبكائهم عشية عرفة فقال: أرأيتم لو أن هؤلاء ساروا إلى رجل فسألوا دانقا ـ يعني سدس درهم ـ أكان يردهم؟ قالوا: لا قال: والله للمغفرة عند الله

أهون من إجابة رجل لهم بدانق[1].

وإني لأدعو الله أطلب عفوه
واعلم أن الله يعفو ويغفر
لئن أعظم الناس الذنوب فإنها
وإن عظمت في رحمة الله تصغر

فالمحروم من حرم الخير ذلك اليوم فقدم بذنوب كثيرة، سوءات خطيرة، ولم يوفق لدعوة خالصة يمحى عنه بها.

وكم نرى من الحجيج من يضيع يوم عرفة بنوم، ومنهم من يضيعه بكلام وأكل وشرب وتقليب البصر مابين رسائل الجوال وبين وجوه الحاضرين، وفي نفسه أعظم الشغل لو كان يفطن، فياله من غبن ليس له نظير!

(١) لطائف المعارف (ص: ٣١٠).

وارتحلنا من عرفات..إلى المزدلفة

«ودفع رسول الله ﷺ وقد شنق للقصواء الزّمام، حتّى إنّ رأسها ليصيب مورك رحله ويقول بيده اليمنى: «أيّها النّاس السّكينة السّكينة» كلّما أتى حبلا من الحبال أرخى لها قليلا، حتّى تصعد، حتّى أتى المزدلفة، فصلّى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين ولم يسبّح بينهما شيئا. ثمّ اضطجع رسول الله ﷺ حتّى طلع الفجر، وصلّى الفجر، حين تبيّن له الصّبح بأذان وإقامة»[١].

وبعد تلك الرحلة الطويلة المصبحة على سير، والمنتصفة بطول قيام، وبمشاعر متهيجة وقلوب واجفة والمنتهية بسير حثيث..لابد أن يعقبها راحة،

(١) من حديث جابر

لاسيما والغد مليء بالأعمال وفيه من السير والجَهد الكثير، فحقّ الجسد الراحة، وحقّ الروح الهدوء والسكينة إلى ذاك الصباح فلا صلاة ولا قيام ولا نصب إلا ترديد التكبير والتلبية بين فينة وفينة لعلها تفيض على نفس عطشى و روح مستوحشة بعد طول أنين وفزع!

فاحذر أن تسلب تلك العبادة البالغة الدقة في الخفاء فكثيرون لا ينظرون إليها إلا على أنها رغبة جسدية ونزهة برية ولا يدري أنها عبادة وتأسٍّ نبوي.

فالمبيت بالمزدلفة من مشاعر الحج وواجباته، نعم واجبك المبيت، وليس المكث فحسب، فتنبه وبت! واحذر أن تؤذي عباد الله بالإزعاج والتصويت والنداء ورفع الصوت، فإن الحجيج قد بلغ منهم الجهد كل مبلغ، فعليك أن تتأدب

بـآداب الجماعـة وتكـون في شـغل بنفسـك وتنـام وتـدع النـاس ينامـون خاصـة في أول الليل...فـإن فيـه بركـة وخاصـة النسـاء الـلاتي سـيدفعن بعـد منتصـف الليـل.

واحــذر مــن التشــديد عــلى نســائك والضعفــة مــن أهلــك، فــلا تلزمهــم بالبقــاء إلى الفجــر فالزحــام شــديد، والمصلحــة في أخذهــم بالرخصــة، وأنــت لهــم مــلازم فخــذ لهــم بــما يعينهــم عــلى أداء مناســكهم، دون مزاحمـة الرجـال ومدافعـة الحجيـج! واعلـم أن رسـول الله ﷺ قـد نـدب في نسـائه وضعفتـه مـن هـو خـير منـك مـن أصحابـه فـما تأخـر ومـا تـردد!

فــإذا أتيــت المشــعر الحــرام فاذكــر الله، وكــبره، واشــكره عــلى مــا هــداك لهــذه الحجــة، ومــا هــداك للإســلام الــذي بــه نجاتــك في حــين أن أكثــر النــاس يعيشــون الضلالــة والإلحــاد.

«ثــمّ ركــب القصــواء حتّــى أتــى المشــعر الحــرام،

فاستقبل القبلة فدعاه وكبّره وهلّله ووحّده، فلم يزل واقفا حتّى أسفر جدّا فدفع قبل أن تطلع الشّمس..».

رمي الجمار.. والبلاء الصعب

«وأردف الفضل بن عبّاس وكان رجلا حسن الشّعر أبيض وسيّما، فلمّا دفع رسول اللّه ﷺ مرّت به ظعن يجرين فطفق الفضل ينظر إليهنّ، فوضع رسول اللّه ﷺ يده على وجه الفضل، فحوّل الفضل وجهه إلى الشّقّ الآخر ينظر. فحوّل رسول اللّه ﷺ يده من الشّق الآخر على وجه الفضل، يصرف وجهه من الشّق الآخر ينظر. حتّى أتى بطن محسّر فحرّك قليلا ثمّ سلك الطّريق الوسطى الّتي تخرج على الجمرة الكبرى، حتّى أتى الجمرة الّتي عند الشّجرة، فرماها بسبع حصيات يكبّر مع كلّ حصاة منها حصى الخذف، رمى من بطن الوادي».

إن من أصعب الأعمال على النفس تلك التي تفعلها دون أن تدرك مرادها... ولو أدركت مرادها.. ثم وجدته صعب المرتقى فإنك ستكون بين أمرين أحلاهما مر... لكن الحلاوة التي تذوقها في مرضاة حبيبك أهون عليك ولو كانت أشد مرارة...

إن قضية رمي الجمار ليست في أين تقف؟ ومتى ترمي؟ وكيف ترمي؟ فذلك وإن كان هديا متبعا وسنة مقتفاة إلا أنه سر عظيم من أسرار الحج... بل من أسرار الخلق فلا تغادره يرحمك الله ولم تدر كنهه ولم تحط بمراده.

فقبل أن نخوض في ذلك، ونتلمس بركاته على قلوبنا، وتهييجه لمشاعرنا، علينا أن نستلهم العبرة من صاحب النداء الأول بالحج وأهله وأعدائه؛ لنعلم السر في رمي الجمار..سر البداية وسر المحاكاة..

أدعـك لتعيـش المشـهد صافيـا مـن كل كـدر.. لكـن عليـك أن تعيشـه مـن أول وهلـة فـإن لم تسـتطع فلـك الثانيـة، فـإن لم تسـتطع فلـك الثالثـة... فـإن لم تسـتطع ولم تتبـين فتفقـد قلبـك فثـم مشـكلة!!

﴿ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ

ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ
﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا
لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي
ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١١٠﴾
إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ
﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ
مُبِينٞ ﴿١١٣﴾ ﴾ [الصافات: ٨٣ - ١١٣].

قول الله تعالى: ﴿ فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ ﴾ قال ابن كثير: «وهذا الغلام هو إسماعيل عليه السلام، فإنه أولُ ولد بشر به إبراهيم، عليه السلام»[1].

ويجدر بك أن تعرف قصة إسماعيل مع أبيه كما جاء في الخبر الذي رواه ابن خزيمة في صحيحه والحاكم في مستدركه، واللفظ له، عن ابن عباس بقال: «لما أتى إبراهيم خليل الله صلوات الله

(١) تفسير القرآن العظيم ٧/ ٢٧

وسلامه المناسك عرض له الشيطان عند جمرة العقبة، فرماه بسبع حصيات حتى ساخ في الأرض، ثم عرض له عند الجمرة الثانية، فرماه بسبع حصيات حتى ساخ في الأرض، ثم عرض له عند الجمرة الثالثة فرماه بسبع حصيات حتى ساخ في الأرض. قال ابن عباس: «الشيطان ترجمون و ملة أبيكم تتبعون»[1].

وروى الإمام أحمد بسنده، عن ابن عباس أنه قال: لما أمر إبراهيم بالمناسك، عَرَض له الشيطان عند السعي، فسابقه فسبقه إبراهيم، ثم ذهب به جبريل إلى جمرة العقبة، فعرض له الشيطان، فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم عرض له عند الجمرة الوسطى فرماه بسبع حصيات، وثَمّ تَلَّه للجبين، وعلى إسماعيل قميص أبيض، فقال

(١) المستدرك ١٧١٣ وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب

لـه: يـا أبـت، إنـه ليـس لي ثـوب تكفنني فيـه غـيره، فاخلعـه حتـى تكفننـي فيـه. فعالجـه ليخلعـه، فنُـوديَ مـن خلفـه: ﴿قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ﴾، فالتفـت إبراهيـم فـإذا بكبـش أبيـض أقـرن أعـين. قـال ابـن عبـاس رضي الله عنهما: لقـد رأيتنـا نتبـع ذلـك الـضرب مـن الكبـاش»[1].

وقـد يذهـب ذهنـك إلى المعنـى الظاهـر مـن رمـي إبراهيـم الجـمار فتظـن أننـا حـين نأتـسي بنبينـا نرمـي الشـيطان كـما كان إبراهيـم عليـه السـلام يرميـه، والصحيـح أننـا نتأسـى في الرمـي بمحمـد ﷺ؛ لنقـف عـلى معنـى بليـغ!

هـذا المعنـى هـو تلـك النفـس المطاوعـة لله تعـالى المراغمـة للشـيطان ولـك أن تتخيـل رجـلا جـاءه الولـد عـلى كبر..ثـم ربـاه وتطلـع لـه؛ ليكـون عضـده وسـاعده، ويحمـل معـه هـم دعوتـه، ويرغـم بـه شـانئيه

(١) المسند برقم ٢٧٠٧، وقال الأرنؤوط: ولمعظم هذا الحديث شواهد وطرق يقوى بها

الذين طالما فرحوا بعقمه، فإذا به يؤمر بذبح ابنه، وفي ذلك من البلاء ما لا يخفى...تفكر وتساءل.. لم يؤمر بذبح ابنه بعد أن رزق به! ولم أمر بالذبح وليس القتل أو الهجر أو التغريب أو الترك كما أمر بالترك أول مرة وهو رضيع! لم أمر به الآن حين بلغ معه السعي، ولِمَ لمْ يكن وهو وليد!؟ ولم يؤمر بمباشرة القتل بنفسه وليس غيره؟!

ألا ترى أن ذلك قمة الابتلاء ؟!

إن كنت لا ترى ذلك فإن الله تعالى رآه قمة الابتلاء لذا قال: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴾ أرأيت كيف ابتلي إبراهيم؟! وكيف صبر؟! وما عاقبة التسليم والصبر!

وماذا اكتنف هذا البلاء من المصاعب، وما صاحبه من المتاعب، وكيف كانت النتيجة؟!

النتيجة لهذا الصبر الفداء بالذِّبح العظيم، والثناء العاطر من رب الأرض والسماوات، والرزق بولد آخر، كالأول صلاحا ونبوة وذرية مباركة، وأكبر من ذلك كله المحمدة التي انفرد بها بين سائر البشر ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾[النساء: ١٢٥].

يااااللشرف !

يااااللمكانة !

يااااللمحمدة !

واتخذ الله إبراهيم خليلا..الله الجليل.. الخالق.. المالك.. الحي.. الجبار.. بكل أسمائه الحسنى وصفاته العلا يتخذ أحدا من خلقه خليلا... لم؟ لأنه نجح في الامتحان... أثبت أنه لا يقدم على مرضاة ربه أحدا... لا يتردد في طاعته مهما بلغت الكراهة النفسية... مهما بلغ الجهل بالحكمة... مهما

بلغت النتائج... مهما وسوس الشيطان، وحار، ودار، وتوعد، وخوف؛ فتلك النفس قد رأت الله تعالى في كل معالم الكون، فآمنت به وأيقنت فلم تعد ترى إلا هو...لذا لم يتمكن الشيطان من إغوائها...

أرأيت الآن لم سار محمد ﷺ مسار إبراهيم!

أرأيت لم وقف كما وقف، ورمى كما رمى!

هل أدركت الآن أنك حين تسير هذا المسار تتربى على الطواعية، تتربى على التسليم، تتربى على التخلي عن كل رغباتك وأهوائك ومحابّك لربك.. الذي زعمت أنك تحبه!

نعم لك أن تدعي حب الله... لكن ثق بأن الله تعالى سيختبر حبك فيما ادعيت فهل ستثبت! هل ستصبر هل ستحقق تلك المحبة وتبرهن عليها؟!

ما أكثر ما ندعي!

وما أكثر ما نرسب في الاختبار!

كل يدعي وصلا بليلى وليلى لا تقر لهم بذاك

فهل يعطى الناس بدعواهم؟؟

أنت الآن في مدرسة الحج العظمى ترى كم خرَّجت هذه المدرسة من الأوائل.. فهل لك في التأسي بهم ومحاكاتهم!

وقد كان ﷺ حين يرمي الجمرة الأولى ينصرف بعيدا عن الضوضاء، ويدعو.. طويلاً.. طويلاً... فقف حيث وقف، وادع حيث دعا، وأطل كما أطال، وأعلم رفقتك بالهدي النبوي؛ حتى لا تثقل عليهم مصاحبتك، ويفوتهم الخير الذي أخذت منه لنفسك.

وهنا أقف وقفة مع أولئك الذين لم يعرفوا مدرسة الحج العظمى، ولم يسلموا تسليم إبراهيم عليه السلام ومحمد ﷺ والرعيل الأول؛ فيحاجون

في قصة الفضل والمرأة التي صرف النبي ﷺ وجهه عنها... ولعل الحكمة من ورود خبرها في ثنايا وصف الحج في حديث جابر امتحان للنساء المأمورات بالحجاب والغطاء في نصوص متضافرة؛ حتى إذا وهموا بنص محتمل؛ تشبثوا به.

فأين منهم تسليم إبراهيم ومدرسة الأواهين المنيبين!

تأمل النص (مرّت به ظعن يجرين) فهن يجرين، والجري يدل على أنهن كن في حاجة ماسة ولأمر مدلهم؛ لذا هن يجرين على غير العادة في النساء! ويدل الجري على أنهن بعيدات من التوجيه فالنبي ﷺ على الناقة، والفضل ردفه (فطفق الفضل ينظر إليهنّ، فوضع رسول اللهّ ﷺ يده على وجه الفضل). فهذا الصرف دليل على عدم جواز النظر، ثم تأمل: (فحوّل الفضل وجهه إلى الشّقّ

الآخر ينظر. فحوّل رسول الله ﷺ يده من الشّق الآخر على وجه الفضل، يصرف وجهه من الشّق الآخر).

فمع حب النظر من الفضل؛ ليتابع الخبر، صرف النبي ﷺ وجهه مراراً! فهل لقائل بعد ذلك أن يقول بجواز كشف الوجه بهذا الدليل!

أين التسليم الذي تخرَّج به من مدرسة الحج مَن يرمي الجمرات، وهو الذي يتأكد من حجم الحصيات مراراً، ويسأل عنها تكراراً، فإذا جاء الأمر مخالفا لهواه ألقى له الأعذار، وجادل باللجج، وقد بانت له الحجج!

قال الغزالي: «ذلك أبلغ في رقهم وعبوديتهم، وأتم في إذعانهم وانقيادهم؛ ولذلك وظف عليهم فيها أعمالا، لا تأنس بها النفوس، ولا تهتدي إلى معانيها العقول، كرمي الجمار بالأحجار، والتردد

بين الصفا والمروة على سبيل التكرار، وبمثل هذه الأعمال يظهر كمال الرق والعبودية، فإن الزكاة إرفاق ووجهه مفهوم، وللعقل إليه ميل، والصوم كسر للشهوة التي هي آلة عدو الله، وتفرغ للعبادة بالكف عن الشواغل، والركوع والسجود في الصلاة تواضع لله عز وجل بأفعال هي هيئة التواضع، وللنفوس أنس بتعظيم الله عز وجل، فأما ترددات السعي ورمي الجمار وأمثال هذه الأعمال فلا حظ للنفوس ولا أنس فيها ولا اهتداء للعقل إلى معانيها، فلا يكون في الإقدام عليها باعث إلا الأمر المجرد وقصد الامتثال للأمر من حيث إنه أمر واجب الاتباع فقط وفيه عزل للعقل عن تصرفه وصرف النفس والطبع عن محل أنسه، فإن كل ما أدرك العقل معناه مال الطبع إليه ميلا ما، فيكون ذلك الميل معينا للأمر وباعثا معه

على الفعل، فلا يكاد يظهر به كمال الرق والانقياد ولذلك قال ﷺ في الحج على الخصوص: لبيك بحجة حقاً تعبداً ورقاً»[1].

إذن هل استشعرت معنى التكبير مع كل حصاة ترمى بعد أن عرفت قصة الرمي؟

الله أكبر منك إذ أذعنت لأمره!

الله أكبر في نفسك من الشيطان المتسلط عليك الموسوس لك إذ عصيته وخالفته وأطعت ربك!

الله أكبر في نفسك من حظوظها إذ تجردت له من كل عقلك إلى حكمته وعلمه!

الله أكبر من كبريائك إذ جمعت الحجر لترميه، وإذ زاحمت الناس وداهمتهم لتقبله! فأنت هنا ترمي حجرا! وهناك تقبل حجرا! وذاك حجر تطوف حوله! وآخر تشاهده! وخامس تعلوه!

(١) إحياء علوم الدين (١/ ٢٦٦).

كلها أحجار لا يعنيك منها شيء إلا امتثال أمر ربك وطواعيته!

ولهذا خلقك لتحقق معنى العبودية بأتم صورها وأرفع تجلياتها!

فيا لله كم من السعادة تجدها وأنت تحقق هذا النصر العظيم على نفسك!

أوما شاهدت وجوه الحجيج وقد رموا الجمار؟

أوما رأيت تلك الإشراقة، و ذلك الفرح!

إنه فرح الانتصار، إنه فرح الانقياد، إنه فرح الطاعة المجردة من كل علل الدنيا ورغباتها وأهدافها ومصالحها، فرح القرب من رضوان الله الذي يبعث عليه كمال التسليم لرب العالمين الذي هو لب الحج ومقصده الأعظم.

سر التكبير..

إن أكثر كلمة تقال في الحج «الله أكبر».

فمنذ خرجت وأنت تكبر، تعلو شرفا تكبر، تهل تكبر، تطوف تكبر، تستلم الحجر تكبر، تقف على الصفا تكبر، تصعد المروة تكبر، تقف بعرفة تكبر، تنفر تكبر، تقف بالمشعر الحرام تكبر، وترمي تكبر، وتبيت في منى كل أيامك تكبر...فلِمَ يا ترى؟

إن التكبير ليس كلمة تقال إنما هو شعار يتوشح به، شعار تتسم به في كل حجك في كل أمكنته وأزمنته، شعار يعني أن الله أكبر من كل شيء، وهذا الذي جعلك تسيح في ذاته هذه السياحة، فسياحة أمة محمد الجهاد والحج ضرب من الجهاد غير أنه

لا قتال فيه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «سئل رسول الله ﷺ أي العمل أفضل؟ قال: إيمان بالله، قيل ثم ماذا؟ قال: الجهاد في سبيل الله، قيل ثم ماذا ؟قال: حج مبرور».[1]

وفي حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «قلت يا رسول الله: نرى الجهاد أفضل الأعمال أفلا نجاهد؟

قال: لا، لكنَّ أفضل الجهاد حج مبرور».[2]

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله ألا نغزو ونجاهد معكم؟ فقال: «أحسن الجهاد وأجمله الحج حج مبرور».[3]

قالت عائشة رضي الله عنها: فلا أدع الحج بعد إذ سمعته من رسول الله ﷺ».

(١) أخرجه البخاري حديث رقم ٢٥ ، ومسلم رقم ١٢١

(٢) أخرجه البخاري ٢٥٩٠

(٣) أخرجه أحمد رقم١٧٣٨

الهدي.. لمن له هدي

(ثـمّ انـصرف إلى المنحـر فنحـر ثلاثـاً وسـتّين بيـده، ثـمّ أعطـى عليّـا فنحـر مـا غـبر، وأشركـه في هديـه، ثـمّ أمـر مـن كلّ بدنـة ببضعـة فجعلـت في قـدر، فطبخـت فـأكلا مـن لحمهـا وشربـا مـن مرقهـا).

وفي هـذا اليـوم يـوم النحـر يقـدم الحـاج هديـه إن كان عليـه هـدي، وهـذا للمتمتـع والقـارن، أمـا المفـرد فليـس عليـه هـدي واجـب!

لكـن الشـأن في الهـدي أن يتذكـر الحـاج أن الخالـق الجليـل حـين أمـره أن يذبـح هديـا لم يكـن المـراد لحومهـا ولا دماؤهـا؛ ولكـن أراد منـه التقـوى بجميـع صورهـا؛ تقـواه حـين تفكـر في سـبب الفـداء الأول، مـا سـببه؟

فقد ضرب إبراهيم أروع المثل في الاستجابة لمراد الله، والانقياد له بالطاعة، فتخلى عن كل محبوب من محابه؛ ليكون إلهه في قلبه فحسب!

فتوجه لتنفيذ أمر الله بذبح ابنه وتجاهل كل ما سواه.

تذكر أنت هذا الموقف، واعلم أن الله تعالى يريد منك أن تتخلى عن كل محابك لمحابه، ولن تنال الرضا التام منه والولاية إلا بذلك. ولك في إبراهيم أسوة.

ولعل الله تعالى لأجل أن يعمر محمد قلبه بحب ربه لم يبق له ولدا، فقد ماتوا جميعاً في حياته، سوى فاطمة، ومع ذلك نعيت إليه في حياته؛ ليبقى قلبه لله خالصاً وبه عامراً.

تفكر في نفسك هل تعرف مقام الألوهية حقا!

وقبل أن تنصرف من هذا المشهد عليك أن تقف وقفة!

تقف على هذه الآية لتعيشها شعوريا وتطبعها في قلبك!

﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمۡ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٧﴾ [الحج: ٣٧].

«ويربط بين الهدي الذي ينحره الحاج وبين تقوى القلوب؛ إذ إن التقوى هي الغاية من مناسك الحج وشعائره. وهذه المناسك والشعائر إن هي إلا رموز تعبيرية عن التوجه إلى رب البيت وطاعته. وقد تحمل في طياتها ذكريات قديمة من عهد إبراهيم عليه السلام وما تلاه. وهي ذكريات الطاعة والإنابة، والتوجه إلى الله منذ نشأة هذه الأمة المسلمة. فهي والدعاء والصلاة سواء».[1]

(١) الظلال ٥/ ١٩٥

وفي هـذه السـورة ذاتهـا يؤكـد الله لعبـاده أن مـن فضلـه علينـا تسـخير هـذه البهائـم لنـا، وإباحـة أكلهـا، واسـتطابة طعامهـا لما يكـون في ذلـك مـن قـوام صحتنا وصلابـة عضلاتنـا، وقـوة عظامنـا، فنحـن أكـرم عليـه مــن ســائر خلقــه ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴿٧٠﴾ ﴾[الإسراء: ٧٠]؛ لــذا فعلينــا أن نتذكــر تلــك المنـة ونشـكر الله عليهـا متقربـين لـه بنحرهـا، منتقـين الأفضـل منهـا، لا لـشيء سـوى الإعـلان عـن تقديـم إرضـاء الله عـلى كل شيء، وإيذانـا بـأن حبنـا لرضـاه فـوق حبنـا للـمال والمتـاع الدنيـوي مهـما كنـا مفطوريـن عليـه.

﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُواْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾[الحج: ٣٣ - ٣٤]، وهنـا تمـام المنـة

منه تعالى؛ فأباح لنا أن ننتفع بلبنها طيلة الرحلة، ولا حرج في ذلك؛ حتى إذا بلغت الحرم نحرناها تقربا!

وفي ذلك من المعاني تمام التخلي عن المألوف، فناقة تسير معك الطريق كله، تشرب لبنها، وتنظر في طولها، وتتأمل جمالها، والعرب خاصة مفتونون في جمال الإبل ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾ [الغاشية: ١٧]؛ ثم ينحرها قرباً من مولاه، وكلما زاد ثمنها وعظم تعلق القلب بها كان ذلك أدعى لتمام التقوى بنحرها؛ لذا لم يدع لعمر ﷺ التحول من ذبح نجيبة ثمينة أهديت إليه بعدد من الإبل أكثر وأقل ثمنا؛ لأن المراد لم يكن العدد بقدر غلاء المضحى به، والمتنازل عنه؛ لأجل مولاك وحبيبك.

وتأمل كيف فعل سليمان عليه السلام بالخيل التي أعجب بها ﴿فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾

[ص: ٣٣]، كان يمكن أن يبيعها.. كان يمكن أن يتصدق بها... كان يمكن أن يهديها.. لكنه لم يفعل، بل تخلص منها بأعنف صورة؛ تكسر تعلق قلبه بها؛ ليقول لمولاه لاشيء يصدني عنك، ولا أسمح لبقاء محبوب ينافس حبك في قلبي، ولو كانت مزاحمته لحبك لحظات.

تلك القلوب التي أخلصت من كل شيء سوى مولاها، استحقت بقدر ذلك عظمة ورفعة!

كثيرون يبحثون عن الأيسر في توفر الهدي والأرخص، ولا يتلذذون بنحر الهدي، ولا يتأملون كيف تهدى، وكيف تجب جنوبها؟

ولا يستشعرون التكبير عليها، ولا يستشعرون اتباع السنة في الأكل منها والتقرب إلى الله بذلك، وكأنما المراد الإتيان بواجب الحج كيفما كان.

وهنا لا تتجلى معاني العبودية بخشوعها وهيبتها مع جوازها من الحيثية الفقهية، إلا أنها تبقى بعيدة عن مخالطة المشاعر، وضعيفة في استثارة المعاني الجليلة، والمقاصد النبيلة لبناء الروح الإيمانية لدى الحاج.

وكل ذلك مرهون بالقدرة على الإتيان بالنسك على أكمل وجه في سائر مشاعر الحج.

ولا ينبغي أن يسجل الحاج تنازلا عن شيء من السنن والمشاعر والإتيان بالأعمال على أكمل وجهها إلا إذا استعصى عليه التمام ولم يجد من المخالفة بدا، وليضع نصب عينيه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [الحج: ٣٢].

افعل.. ولا حرج

في هـذا اليـوم يـوم الحـج الأكـبر، يـوم النحـر يـؤدي الحـاج أكثـر المناسـك، فيرمـي، وينحـر، ويحلـق، ويطـوف، ويسـعى، ويعـود لمنـى، فبأيهـا يبـدأ؟

لا شـك أن البـدء بـما بـدأ النبـي ﷺ هـو السـنة، ولكـن مقاصـد الشريعـة تتقـدم عـلى اتبـاع الحـذو الذي لم يلـزم فيـه المؤمـن بالمحـاكاة الكاملـة، ومـن ذلـك ترتيـب أفعـال هـذا اليـوم، فعليـك أن تنظـر في ظرفـك وظـرف رفاقـك، ومسـير حملتـك والتزامـك بالضعفـة لـو كنـت ملتزمـا بهـم كالنسـاء والشـيوخ الكبـار وأهل الأعبـاء مـن موظفـين ومتعاونـين وخدمـة الحجيـج فطـوع نفسـك؛ لتقـدم وتؤخـر مـن الأعـمال مـا تحقـق بـه مقصـود الحـج مـن التفكـر والتأمـل، وتذكـر قولـه

تعالى: ﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ﴾ [الحج: ٣٧]، وتذكر قوله: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ٣٢﴾ [الحج: ٣٢].

وتذكر أن المشرع لم يُشرِّع لك وحدك، ولم يُشرِّع لعصر وحيد، وزمان فريد، بل كان في الحسبان ضيق المشاعر عن أعداد الحجيج، فتخيل لو أنهم جميعا طافوا في ساعة واحدة، ورموا في ساعة واحدة، ونحروا في ساعة واحدة كيف سيكون الحال؟

ولذا أصل النبي ﷺ أصلاً رائعاً، وقعد قاعدة بليغة حين كان يسأل عن التقديم والتأخير فيقول: «افعل ولا حرج» [1] و قطع الطريق على المتحجرين في عقولهم الذين لا يعون المقاصد حين قال:

(١) في البخاري برقم ٨٣، وفي مسلم برقم ١٣٠٦

«وقفت هاهنا وعرفة كلها موقف»[1] علم ﷺ أن ثمّ تضيقو أفق يحجرون أنفسهم في زاوية ويبدعون من خرج من دائرتها بلا برهان!

وكم عانى العلماء من هذا الصنف ما عانوا!

وقد قاومهم الصحابة في عصرهم وتتالى على ذلك الأئمة الربانيون، وكان رأيهم هو الباقي، واختيارهم هو المؤيد، ولم تحفل الأمة كثيراً بمن خالفهم، ومن عاداهم، ومن بدعهم وخذ مثلا على ذلك عثمان بن عفان حين جمع الناس على مصحف واحد وابن تيمية حين قاوم المعطلة والمرجئة وعلى طريقهم سار محمد بن عبدالوهاب رحمهم الله جميعاً!

(١) أخرجه مسلم برقم ١٢١٨

وعدنا.. للبيت العتيق

(ثمّ ركب رسول اللهّ ﷺ، فأفاض إلى البيت، فصلّى بمكّة الظّهر فأتى بني عبد المطّلب يسقون على زمزم، فقال: «انزعوا بني عبد المطّلب فلولا أن يغلبكم النّاس على سقايتكم لنزعت معكم، فناولوه دلوا فشرب منه) [1].

حقا.. إنه الجهاد.. كان بالإمكان أن يؤجل النبي ﷺ الطواف إلى الغد!

فلم يا ترى أفاض في يومه ذاك؟ وهو الذي لا يشق على الناس في سنته وهديه؛ لكنها رسالة أفهم منها ألا تؤجل الأعمال العظائم، وفيما دونها فأنت على مهلك.

(١) حديث جابر

ما من عمل من أعمال الحج لا يتم الحج إلا به غير الوقوف بعرفة وطواف الإفاضة؛ فلا يجزئ عنه فداء ولا يصح حج إلا به ولذا كان التتابع؛ فالنفوس تكل! وفي ذلك ملمح جليل، وهو أن عرفة تذكر بيوم الحشر وما يكون من اجتماع الناس للحساب!

والرمي يحمل معنى مخالفة الهوى والاصطبار على الأوامر التي راغمنا بها الشيطان!

والفداء حمل لنا معنى التضحية ذاك اليوم بكل شيء: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾﴾ [المعارج: ١١- ١٤].

قدم الفداء فماذا بعد؟ لابد أن يفيض إلى رحمة الله ويؤوب إليه ويسكن إلى جنة المستقر...فيؤوب إلى بيت الله العتيق مرة أخرى؛ ليعلن اللجأ إليه؛

وليرتاح بالقرب منه؛ فبيته يعني القرب منه، والتعلق بأستاره يعني تمام الإنابة، فالطواف الأول طواف القدوم أو طواف العمرة أيا ما كان يمثل اقترابك منه في الدنيا بكل عباداتك! وطوافك ببيته العتيق، و في الإفاضة يذكرك بالعودة إليه في الأخرى؛ لتعلن أنك منه وإليه، وأنك متعلق برحمته فلن تدخل الجنة إلا برحمته ورضاه!

فها أنت تعود إليه لتقول: (وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين)

يا لتلك الخاتمة العظيمة!

يا لتلك القاعدة النبيلة!

«انزعوا بني عبد المطّلب فلولا أن يغلبكم النّاس على سقايتكم لنزعت معكم» حين يفصل بين العبادات وأعمال الشرف والكرامة والمروءات التي تخص أناسا دون آخرين، فلا تخلط يا عبد الله

بين أعمال العبادات والشعائر، وبين حسن العمل الذي يُهَيأ له بعض الناس بفضل الله ورحمته.

ولعلك لو فعلت فسوف تعجز أو توقع الناس في الحرج!

ألا ترى أنه يكمن أقوام لمواقف لا يكمن لها غيرهم!

فبعضهم يكمن للخدمة، وبعضهم يكمن لنفع الناس بالشفاعة، وبعضهم في الإغاثة، وبعضهم لا يملك شيئاً، فلا أقل أن يكف الناس من شره، وبعضهم- والعياذ بالله - ما أخذ بشيء من حظ؛ لكن سلطه الشيطان على نفسه؛ ليحصد حسناته بنفسه ويهديها لأقوام كانوا في شغل بالناس، وكان هو فيهم في شغل، فيا لله كم هو محروم من التوفيق، وهو لا يرى، ولا يبصر، مع أن الحق مبسوط بين يديه! وما مثله إلا كما قال الشاعر:

كالعيـــس في البيـــداء يقتلهـــا الظمـــأ

والمـــاء فـــوق ظهورهـــا محمـــول

فيا للحرمان..نسأل الله السلامة

والمُنى.. في مِنى !!

﴿ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْۖ فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الحج: ٢٨ - ٣١].

في الليالي المقمرات تجد راحة وطمأنينة و قرة عين، هناك حيث التسامر بالذكر... هناك حيث الاجتماع عليه... هناك حيث نَقْصُر الصلاة،

ونطيل التكبير والتهليل ﴿وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾ [الحج: ٢٨]... هناك حيث تزول الإحن، وتتمرغ القلوب في بطاح التوبة... هناك حيث ركعات ذليلات... هناك حيث سجدات خاشعات.. هناك حيث عبرات ساخنات.. ونفوس شجيات.. هناك حيث المعسكر الإيماني يجدد الخلوة، ويصقل النفوس، ويحملها على حب بعضها... هناك حيث نحبس أنفسنا على متاع من الدنيا قليل يرقع خصتنا ويقيم أودنا فحسب، ويعلمنا أننا نستطيع العيش هكذا... بلا مباهاة... بلا ثراء... بلا متاع إلا القليل القليل... هناك حيث نتعلم التواضع... هناك حيث نتعلم تحمل بعضنا بعضا... هناك حيث نتأمل حبس النفس لله كيف يكون! كيف نربيها لله! كيف نقويها لله! كيف نصبرها لله! كيف نسكتها لله! كيف ننطقها لله! هناك حيث ننال المنى فحسب!

هنـاك حيـث تسـكب العبرات..ممزوجـة بالبهجـة.. حيــث نقــر... يومــين أو ثلاثــة فتكــون في ذكرانــا دهــراً.. نغادرهــا يــوم نغــادر! ونودعهــا يــوم نــودع والقلـوب واجفـة أبصارهـا خاشـعة.. تترقـرق الدمعـة حـين تـرى المخيـمات وقـد خلـت مـن سـاكنيها. تـرى الطرقـات وقـد أقفـرت مـن سـالكيها... تسـمع حسـاً ولا تـرى أنسـاً؛ فتغـادر ومنـى قاعـاً صفصفـاً بعـد أن كنـت لا تجـد لـك ركـزاً.

حقا لن تملك دمعة تفر...أتعلم لم؟

لأن ذلك يوحي لك بشعور!

إنه شعور النهاية إنه شعور سرعة الزوال!

إنه شعور المفارقة بعد المؤالفة!

ومـا أقسـاه عـلى القلـوب الرقيقـة الحيـة، التـي تألـف وتؤلـف، تلـك القلـوب التـي يؤنسـها القـرب، ويعذبهـا الفـراق فللـه هـي!!

رحماك رباه من الوداع

كـم يصعـب وداعُ مـن تحب..كـم تتـألم وأنـت تقول لـه وداعا...فهـلا قلـت: إلى اللقاء!

هكــذا هــي الدنيــا تبــدأ... تنتهــي... فــأيّ شيء تطلــب؟ وأنــت تــرى لطلبــك نهايــة؟

إذن فاطلب مالا ينتهي تكن أعقل الناس.

تأمـل، وأنـت تطـوف بالبيـت مودعـا أنهـا رحلتـك الأخـيرة!

تأمــل، وأنــت تطــوف بالبيــت مودعــا أن نبيــك ﷺ طـاف بالبيـت داعيـاً، وليـس لـه نصـير، ثـم أراده ليطـوّف بـه، وعـاد مصـدوداً عنـه! ثـم عـاد ليطـوف به في منعـة مـن أصحابـه وقـوة لم تكـن تخطـر عـلى قلـوب

أعدائه ومناوئيه! ثم عاد فاتحًا يجر الجيوش التي لا قبل لقريش التي عادته وطردته بها! كل ذلك كان في عشر سنين، مذ هاجر إلى أن عاد منتصرا فاتحاً!

هل تأملت كيف ابتلي؟ هل أبصرت كيف صبر؟ هل رأيت كيف ظفر وانتصر؟

وفي نهاية مطافه كان العود أحمد!

كان خياره إلى الرفيق الأعلى.

وهذا خيار المحبين، تبقى قلوبهم معلقة بمحبوبيهم، ولا تعني لهم كل معالم الحياة شيئاً سوى ذلك؛ فهم يستشعرون أنهم في مهمة يؤدونها، ثم يرجعون إلى باعثهم ومكلفهم، وهم به آنس، وله أشد شوقا!

وأمثلهم شاهداً الخليل إبراهيم الذي نادانا الله به إليه، وعلى إثره المصطفى الذي أمرنا بالتأسي

بنهجه، وأمر بالتأسي بالأنبياء قبله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ [الأنعام: ٩٠].

هل تذكرته يوم قضى مهمته، وبلغ الرسالة، وأدى الأمانة؟

عد لكلماته في خطبة عرفة التي سبقت؛ لترى كيف ودعك هناك، وكيف ودع أصحابه؟

وتأمل من ذاك الذي فطن للوداع، وفهم الشفرة، وفك الرموز! إنه أحب حبيب وأقرب قريب!

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: (خطب رسول الله ﷺ الناس، وقال: «إن الله خير عبداً بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ذلك العبد ما عند الله»، قال: فبكى أبو بكر، فعجبنا لبكائه أن يخبر رسول الله ﷺ عن عبد خُيِّر، فكان رسول الله ﷺ هو المخيَّر، وكان أبو بكر أعلمنا)[1].

(١) البخاري (٣٦٥٤)، مسلم (٢٣٨٢).

هل تذكرت كيف واسى الناس في مصائبهم بفقد ما يحبون بمفارقتهم له حيث قال: «يا أيها الناس أيما أحد من الناس أو من المؤمنين أصيب بمصيبة فليتعَزَّ بمصيبته بي عن المصيبة التي تصيبه بغيري، فإن أحداً من أمتي لن يصاب بمصيبة بعدي أشد عليه من مصيبتي» [(١)].

ياللامتزاج النفسي !

ياللشعور القلبي!

ياللحب الصافي، ياللثبات المتناهي!

أن تعلم أن حبيبك الذي ملأ شغاف قلبك يودعك!

وينعي نفسه إليك!

وأنت تراه يموت أمامك في كل ساعة تكتحل

(١) ابن ماجه (١٥٩٩) وصححه الألباني

عينك بمرآه، ولا تملك لفراقه ردا ولا دفعا، وتذكر وحدتك دونه بعد أن كنت معه على كل حال؛ حتى ملأ عليك حياتك، وأنساك وطنك وأهلك، هكذا هو الآن يودعك بعلمك!

هل عشت هذا الشعور؟

أم عشت شعور أولئك الذين أحبوه حتى النخاع، وأحبوه فوق أنفسهم، وآثروه على أرواحهم التي تسري في أجسادهم هم يعزي بعضهم بعضاً فيه وكلهم ثَكِل، وكلهم محزون، وكلهم مفلوق الكبد، يسير في الطرقات كالمجنون لا يحس نبضه، ولا يشعر بأنفاسه.

هكذا الوداع كان لهم آنذاك!

وهكذا سيكون لك حينذاك! فانتظره! وعشه تلك الساعة التي تودع فيها البيت العتيق كما ودعه نبيك من قبل.

وتأمل هذه الحقيقة:

لِـكُلِّ شَيءٍ إِذا مـا تَـمّ نُقصـانُ
فَـلا يُغَـرَّ بِطيـبِ العَيـشِ إِنسـانُ
هِـيَ الأُمُـورُ كَـما شـاهَدتُها دُوَلٌ
مَـن سَرّهُ زَمَـن سـاءَتهُ أَزمـانُ
وَهَـذِهِ الـدارُ لا تُبقـي عَـلى أَحَـدٍ
وَلا يَـدُومُ عَـلى حـالٍ لَهـا شـانُ
يُمَـزِّقُ الدَهـرُ حَتـماً كُلَّ سـابِغَةٍ
إِذا نَبَـت مَشرَفِـيّات وَخرصـانُ
وَيَنتَـضي كُلَّ سَـيفٍ للفَنـاء وَلَـو
كانَ ابـنَ ذي يَـزَن وَالغِمـد غمـدانُ
أَيـنَ المُلـوكُ ذَوي التيجـانِ مِـن يَمَـنٍ
وَأَيـنَ مِنهُـم أَكالِيـلٌ وَتيجَـانُ
وَأَيـنَ مـا شـادَهُ شَـدّادُ في إِرَمٍ
وَأَيـنَ مـا ساسَـه في الفُـرسِ ساسـانُ

وَأَيــنَ مــا حــازَهُ قــارونُ مــن ذَهَــبٍ
وَأَيــنَ عــادٌ وَشــدّادٌ وَقَحطــانُ
أَتــى عَــلى الــكُلِّ أَمــرٌ لا مَــرَدّ لَــهُ
حَتّــى قَضــوا فَــكَأَنّ القَــومَ مــا كانُــوا
وَصــارَ مــا كانَ مِــن مُلــكٍ وَمِــن مَلــكٍ
كَــما حَكــى عَــن خَيــالِ الطَيــفِ وَســنانُ
دارَ الزَمــانُ عَــلى دارا وَقاتِلِــهِ
وَأَمَّ كِــسرى فَــما آواهُ إِيــوانُ
كَأَنَّــما الصَعــبُ لَم يَســهُل لَــهُ ســببٌ
يَومــاً وَلا مَلَــكَ الدُنيــا سُــلَيمانُ
فَجائِــعُ الدُهــرِ أَنــواعٌ مُنَوَّعَــةٌ
وَلِلزَمــانِ مَــسَرّاتٌ وَأَحــزانُ
وَلِلحَــوادِثِ ســلوانٌ يُهَوِّنُهــا
وَمــا لِمــا حَــلَّ بِالإِســلامِ ســلوانُ
أَتــى عَــلى الــكُلِّ أَمــرٌ لا مَــرَدّ لَــهُ
حَتّــى قَضــوا فَــكَأَنّ القَــومَ مــا كانُــوا

دهـــى الجَزيـــرَة أَمـــرٌ لا عَـــزاءَ لَـــهُ
هَـــوَى لَـــهُ أُحُـــدٌ وَانهَـــدَّ ثَهـــلانُ
أَصابَهـــا العـــينُ في الإِســـلامِ فارتـــزَأت
حَتّـــى خَلَـــت مِنـــهُ أَقطـــارٌ وَبُلـــدانُ
فاِســـأل بَلَنسِـــيةً مـــا شَـــأنُ مرسِـــيَةٍ
وَأَيـــنَ شـــاطِبَة أَم أَيـــنَ جيّـــانُ
وَأَيـــن قُرطُبـــة دارُ العُلُـــومِ فَكَـــم
مِـــن عـــالِمٍ قَـــد سَـــما فِيهـــا لَـــهُ شـــانُ
وَأَيـــنَ حمـــصٌ وَمـــا تَحويـــهِ مِـــن نُـــزَهٍ
وَنَهرُهـــا العَـــذبُ فَيّـــاضٌ وَمَـــلآنُ
قَوَاعـــدُ كُـــنَّ أَركانَ البِـــلادِ فَـــما
عَســـى البَقـــاءُ إِذا لَم تَبـــقَ أَركانُ
تَبكِـــي الحَنيفِيَّـــةُ البَيضَـــاءُ مِـــن أَسَـــفٍ
كَـــما بَكـــى لِفِـــراقِ الإِلـــفِ هَيـــمَانُ
عَـــلى دِيـــارٍ مِـــنَ الإِســـلامِ خالِيَـــةٍ
قَـــد أَقفَـــرَت وَلَهَـــا بالكُفـــرِ عُمـــرانُ

حَيثُ المَساجِدُ قَد صارَت كَنائِس ما
فيهِنَّ إِلّا نَواقِيسٌ وصلبانُ
حَتّى المَحاريبُ تَبكي وَهيَ جامِدَةٌ
حَتّى المَنابِرُ تَبكي وَهيَ عيدَانُ
يا غافِلاً وَلَهُ في الدهرِ مَوعِظَةٌ
إِن كُنتَ في سِنَةٍ فالدهرُ يَقظانُ
وَماشِياً مَرِحاً يُلهِيهِ مَوطِنُهُ
أَبعَدَ حِمصٍ تَغُرُّ المَرءَ أَوطانُ
تِلكَ المُصِيبَةُ أَنسَت ما تَقَدَّمَها
وَما لَها مِن طِوَالِ المَهرِ نِسيانُ
يا أَيُّها المَلِكُ البَيضاءُ رايَتُهُ
أَدرِك بِسَيفِكَ أَهلَ الكُفرِ لا كانوا
يا راكِبينَ عِتاقَ الخَيلِ ضامِرَةً
كَأَنَّها في مَجالِ السَبقِ عقبانُ
وَحامِلينَ سُيُوفَ الهِندِ مُرهَفَةً
كَأَنَّها في ظَلامِ النَقعِ نيرَانُ

وَراتِعــينَ وَراءَ البَحــرِ في دعــةٍ
لَهُــم بِأَوطانِهِــم عِــزٌّ وَسلطانُ

أَعِندكُــم نَبَــأ مِــن أَهــلِ أَندَلُــسٍ
فَقَــد سَرى بِحَدِيــثِ القَــومِ رُكبَــانُ

كَــم يَستَغيثُ بِنــا المُستَضعَفُونَ وَهُــم
قَتلى وَأَسرى فَــما يهتــزُّ إِنســانُ

مــاذا التَقاطُــعُ في الإِســلامِ بَينَكُــمُ
وَأَنتُــم يــا عِبَــادَ اللهِ إِخــوَانُ

أَلا نُفــوسٌ أَبيّــاتٌ لَهَــا هِمَــمٌ
أَما عَــلى الخَــيرِ أَنصــارٌ وَأَعــوانُ

يــا مَــن لِذلَّــةِ قَــوم بَعــدَ عِزّتِهِــم
أَحــالَ حالَهُــم كفــرٌ وَطُغيــانُ

بِالأَمــسِ كانُــوا مُلُــوكاً فِي مَنازِلِهِــم
وَاليَــومَ هُــم في بِــلادِ الكُفــرِ عُبــدانُ

فَلَــو تَراهُــم حَيــارى لا دَلِيــلَ لَهُــم
عَلَيهِــم مــن ثيــابِ الــذُلِّ أَلــوانُ

وَلَـــو رَأَيــت بُكاهُــم عِنــدَ بَيعهــمُ
لَهالَـكَ الأَمـرُ وَاِسـتَهوَتك أَحـزانُ
يــا رُبَّ أمٍّ وَطِفــلٍ حيــلَ بينهُمــا
كَـما تُفَـرَّقُ أَرواحٌ وَأَبـدانُ
وَطفلَـة مِثـلَ حُسـنِ الشَـمسِ إِذ بـرزت
كَأَنَّـما هــيَ ياقُـوتٌ وَمُرجـانُ
يَقُودُهــا العِلــجُ لِلمَكــروهِ مُكرَهَــةً
وَالعَـينُ باكِيَـةٌ وَالقَلـبُ حَـيرانُ
لِمثـلِ هَــذا يـذوب القَلـبُ مِـن كَمَـدٍ
إِن كانَ في القَلـبِ إِسـلامٌ وَإِيـمانُ[1]

وبعــد أن قفــل رســول الله ﷺ راجعــاً مــن منــى عــاد للبيــت العتيــق ليكــون آخــر العهــد بــه وليــودع الدنيــا بعــده إلى الرفيــق الأعــلى..

صــلى عليــك الله يــا علــمَ الهــدى
مــا ســار ركــبٌ أو ترنّــم حــادي

(١) أبو البقاء الرندي

اللهم افتح على قلوبنا بما يريها اليقين، وأنر بصائرنا بما نشهد به الدليل واستعمل جوارحنا فيما يوصلنا إلى رضوانك وجناتك جنات النعيم، واجعله متقبلاً منا برحمتك يا أرحم الراحمين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أدعية مختارة[1]

﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧ ﴾ [الفاتحة: ٦ - ٧].

﴿ رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ۝٢٣ ﴾ [الأعراف: ٢٣].

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝١٢٧ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٢٨ ﴾ [البقرة: ١٢٧-١٢٨].

﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝٢٠١ ﴾ [البقرة: ٢٠١].

(١) خير ما ينبغي أن يدعو به الحاج ما ورد في كتاب الله من دعاء الأنبياء والصالحين وما دعى به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وما علمه أمته من جوامع الكلم وهو أقرب للقبول، أذكره هنا وأدع عزوة تجنبا لطول الكتاب نفعنا الله به.

﴿ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٥٠ ﴾ [البقرة: ٢٥٠].

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٨٦ ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ٨ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ٩ ﴾ [آل عمران: ٨-٩].

﴿ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٦ ﴾ [آل عمران: ١٦].

﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٥٣ ﴾ [آل عمران: ٥٣].

﴿ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٤٧ ﴾ [آل عمران: ١٤٧].

﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾
رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ
﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ
فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ
ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ
إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٩١-١٩٤].

﴿ وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾

[النساء: ٧٥].

﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ
ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٣].

﴿ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا
وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الأعراف: ٨٩].

﴿ رَبَّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾

[الأعراف: ١٢٦].

﴿ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾ [الأعراف: ١٤٩].

﴿ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾

[يونس: ٨٥].

﴿ رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ ﴾ [إبراهيم: ٤٠-٤١].

﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ ﴾

[الكهف: ١٠].

﴿ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا ﴿٧٣﴾ ﴾ [طه: ٧٣].

﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾

[المؤمنون: ١٠٩].

﴿ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ ﴾ [الفرقان: ٦٥-٦٦].

﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﴾ [الفرقان: ٧٤].

﴿ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ ﴾

[الشعراء: ٥٠-٥١].

﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ ﴾ [غافر: ٧-٩].

﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾

[الحشر: ١٠].

﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا

﴿ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ ﴾

[الممتحنة: ٤-٥].

﴿ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ ﴾ [التحريم:٨].

﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [نوح: ٢٦-٢٨].

﴿ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ ﴾ [التحريم: ١١].

﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الأحقاف: ١٥].

﴿ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [الصافات: ١٠٠].

﴿ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [العنكبوت: ٣٠].

﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾[القصص: ٢٤].

﴿ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ [القصص: ٢١].

﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي ﴾ [القصص: ١٦].

﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [النمل: ١٩].

﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾[الشعراء: ٨٣-٨٩].

﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [المؤمنون: ١١٨].

﴿ رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ ﴾ [المؤمنون: ٩٧-٩٨].

﴿ رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [المؤمنون: ٢٩].

﴿ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [المؤمنون: ٣٩].

﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الأنبياء: ٨٩].

﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ [طه: ١١٤].

﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ ﴾ [طه: ٢٥-٢٦].

﴿ رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ ﴾ [الإسراء: ٨٠].

﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ ﴾ [آل عمران: ٣٨].

﴿ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

﴿ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [التوبة: ١٢٩].

﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [البقرة: ١٥٦].

﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾﴾ [مريم: ٥].

«اللهم رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ».

«اللهم إني أعوذ بك من فتنة النار وعذاب النار، وفتنة القبر، وعذاب القبر، وشر فتنة الغنى، وشر فتنة الفقر، اللهم إني أعوذ بك من شر فتنة المسيح الدجال، اللهم اغسل قلبي بماء الثلج والبرد، ونق قلبي من الخطايا كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس، وباعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب. اللهم إني أعوذ بك من الكسل والمأثم والمغرم».

«اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل،

والجبن والهرم والبخل، وأعوذ بك من عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات».

«اللهم إني أعوذ بك من جهد البلاء، ودرْك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء».

«اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير، واجعل الموت راحة لي من كل شر».

«اللهم إني أسألك الهدى، والتقى، والعفاف، والغنى».

«اللهم إني أعوذ بك من العجز، والكسل، والجبن، والبخل، والهرم، وعذاب القبر، اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها. أنت وليها ومولاها. اللهم إني أعوذ بك من علم لا

ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها».

«اللهم اهدني وسددني، اللهم إني أسألك الهدى والسداد».

«اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك، وتحول عافيتك، وفجاءة نقمتك، وجميع سخطك».

«اللهم إني أعوذ بك من شر ما عملت، ومن شر ما لم أعمل».

«اللهم أكثر مالي، وولدي، وبارك لي فيما أعطيتني».

«لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السماوات، ورب الأرض، ورب العرش الكريم».

«اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله، لا إله إلا أنت».

«لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين».

«اللهم إني عبدك ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيّ حكمك، عدل فيّ قضاؤك. أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي».

«اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك».

«يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك».

«اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة».

«اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة».

«رب أعني ولا تعن علي، وانصرني ولا تنصر علي، وامكر لي ولا تمكر علي، واهدني ويسر الهدى إلي، وانصرني على من بغى علي، رب اجعلني لك شكّاراً، لك ذكّاراً، لك رهّاباً، لك مطواعاً، إليك مخبتاً أوّاهاً منيباً، رب تقبل توبتي، واغسل حوبتي، وأجب دعوتي، وثبت حُجتي، واهد قلبي، وسدد لساني، واسلل سخيمة قلبي».

«اللهم إنا نسألك من خير ما سألك منه نبيك محمد ﷺ، ونعوذ بك من شر ما استعاذ منه نبيك محمد ﷺ، وأنت المستعان، وعليك البلاغ، ولا حول ولا قوة إلا بالله».

«اللهم إني أعوذ بك من شر سمعي، ومن شر

بصري، ومن شر لساني، ومن شر قلبي، ومن شر منيي».

«اللهم إني أعوذ بك من البرص، والجنون، والجذام، ومن سيئ الأسقام».

«اللهم إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق، والأعمال، والأهواء».

«اللهم إنك عفو كريم تحب العفو فاعف عني».

«اللهم إني أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين، وأن تغفر لي، وترحمني، وإذا أردت فتنة قوم فتوفني غير مفتون، وأسألك حبك، وحب من يحبك، وحب عمل يقربني إلى حبك».

«اللهم إني أسألك من الخير كله: عاجله وآجله،

ما علمت منه وما لم أعلم، وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله، ما علمت منه وما لم أعلم. اللهم إني أسألك من خير ما سألك عبدك ونبيك، وأعوذ بك من شر ما استعاذ بك منه عبدك ونبيك. اللهم إني أسألك الجنة، وما قرب إليها من قول أو عمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل، وأسألك أن تجعل كل قضاء قضيته لي خيراً».

«اللهم احفظني بالإسلام قائمًا، واحفظني بالإسلام قاعداً، واحفظني بالإسلام راقداً، ولا تشمت بي عدواً ولا حاسداً. اللهم إني أسألك من كل خير خزائنه بيدك، وأعوذ بك من كل شر خزائنه بيدك».

«اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا

وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا، اللهم متعنا بأسماعنا، وأبصارنا، وقواتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا، واجعل ثأرنا على من ظلمنا، وانصرنا على من عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا».

«اللهم إني أعوذ بك من الجبن، وأعوذ بك من البخل، وأعوذ بك من أن أرد إلى أرذل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا وعذاب القبر».

«اللهم اغفر لي خطيئتي، وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي هزلي وجدي، وخطئي وعمدي، وكل ذلك عندي».

«اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر

الذنـوب إلا أنـت. فاغفـر لي مغفـرة مـن عنـدك، وارحمنـي إنـك أنـت الغفـور الرحيـم».

«اللهـم لـك أسـلمت، وبـك آمنـت، وعليـك توكلـت، وإليـك أنبـت وبـك خاصمـت. اللهـم إني أعـوذ بعزتـك لا إلـه إلا أنـت أن تضلنـي. أنـت الحـي الـذي لا يمـوت، والجـن والإنـس يموتـون».

«اللهـم إنـا نسـألك موجبـات رحمتـك، وعزائـم مغفرتـك، والسـلامة مـن كل إثـم، والغنيمـة مـن كل بـر، والفـوز بالجنـة، والنجـاة مـن النـار».

«اللهـم اجعـل أوسـع رزقـك عـلي عنـد كـبر سـني، وانقطـاع عمري».

«اللهـم اغفـر لي ذنبـي، ووسـع لي في داري، وبـارك لي في رزقـي».

«اللهم إني أسألك من فضلك ورحمتك، فإنه لا يملكها إلا أنت».

«اللهم إني أعوذ بك من التردي، والهدم، والغرق، والحرق، وأعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت، وأعوذ بك أن أموت في سبيلك مدبراً، وأعوذ بك أن أموت لديغاً».

«اللهم إني أعوذ بك من الجوع، فإنه بئس الضجيع، وأعوذ بك من الخيانة، فإنها بئست البطانة».

«اللهم إني أعوذ بك من العجز، والكسل، والجبن، والبخل، والهرم، والقسوة، والغفلة، والعَيْلة، والذلة، والمسكنة، وأعوذ بك من الفقر، والكفر، والفسوق، والشقاق، والنفاق، والسمعة، والرياء، وأعوذ بك من الصمم، والبكم، والجنون، والجذام، والبرص، وسيئ الأسقام».

«اللهم إني أعوذ بك من الفقر، والقلة، والذلة، وأعوذ بك من أن أَظلِم أو أُظلَم».

«اللهم إني أعوذ بك من جار السوء في دار المقامة؛ فإن جار البادية يتحول».

«اللهم إني أعوذ بك من قلب لا يخشع، ومن دعاء لا يسمع، ومن نفس لا تشبع، ومن علم لا ينفع. أعوذ بك من هؤلاء الأربع».

«اللهم إني أعوذ بك من يوم السوء، ومن ليلة السوء، ومن ساعة السوء، ومن صاحب السوء، ومن جار السوء في دار المقامة».

«اللهم إني أسألك الجنة وأستجير بك من النار». (ثلاث مرات).

«اللهم فقهني في الدين».

«اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم».

«اللهم انفعني بما علمتني، وعلمني ما ينفعني، وزدني علماً».

«اللهم إني أسألك علماً نافعاً، ورزقاً طيباً، وعملاً متقبلاً».

«اللهم إني أسألك يا الله بأنك الواحد الأحد، الصمد الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، أن تغفر لي ذنوبي، إنك أنت الغفور الرحيم».

«اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك المنان يا بديع السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم، إني أسألك الجنة وأعوذ بك من النار».

«اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت، الأحد، الصمد، الذي لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد».

«رب اغفر لي، وتب علي، إنك أنت التواب الغفور».

«اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أحيني ما علمت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا علمت الوفاة خيراً لي، اللهم إني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الرضا والغضب، وأسألك القصد في الغنى والفقر، وأسألك نعيماً لا ينفذ، وأسألك قرة عين لا تنقطع، وأسألك الرضا بعد القضاء، وأسألك برد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك، في غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة، اللهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين».

«اللهم ارزقني حبك، وحب من ينفعني حبه عندك، اللهم ما رزقتني مما أحب فاجعله قوة لي فيما تحب، اللهم ما زويت عني مما أحب فاجعله فراغاً لي فيما تحب».

«اللهم طهرني من الذنوب والخطايا، اللهم نقني منها كما ينقى الثوب من الدنس، اللهم طهرني بالثلج والبرد والماء البارد».

«اللهم إني أعوذ بك من البخل، والجبن، وسوء العمر، وفتنة الصدر، وعذاب القبر».

«اللهم رب جبرائيل، وميكائيل، ورب إسرافيل، أعوذ بك من حر النار ومن عذاب القبر».

«اللهم ألهمني رشدي، وأعذني من شر نفسي».

«اللهم إني أسألك علماً نافعاً، وأعوذ بك من علم لا ينفع».

«اللهم رب السماوات السبع ورب الأرض، ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء، فالق الحب والنوى، ومنزل التوراة والإنجيل والفرقان، أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته، اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عنا الدين وأغننا من الفقر».

«اللهم ألف بين قلوبنا، وأصلح ذات بيننا، واهدنا سبل السلام، ونجنا من الظلمات إلى النور، وجنبنا الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وبارك لنا في أسماعنا، وأبصارنا، وقلوبنا، وأزواجنا، وذرياتنا، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم، واجعلنا شاكرين لنعمتك مثنين بها عليك قابلين لها وأتمها علينا».

«اللهم إني أسألك خير المسألة، وخير الدعاء، وخير النجاح، وخير العمل، وخير الثواب، وخير الحياة، وخير الممات، وثبتني، وثقل موازيني، وحقق إيماني، وارفع درجاتي، وتقبل صلاتي، واغفر خطيئتي، وأسألك الدرجات العلى من الجنة، اللهم إني أسألك فواتح الخير، وخواتمه، وجوامعه، وأوله، وظاهره، وباطنه، والدرجات العلى من الجنة آمين. اللهم إني أسألك خير ما آتي، وخير ما أفعل، وخير ما أعمل، وخير ما بطن، وخير ما ظهر، والدرجات العلى من الجنة آمين. اللهم إني أسألك أن ترفع ذكري، وتضع وزري، وتصلح أمري، وتطهر قلبي، وتحصن فرجي، وتنور قلبي، وتغفر لي ذنبي، وأسألك الدرجات العلى من الجنة آمين. اللهم إني أسألك أن تبارك في نفسي، وفي سمعي، وفي بصري، وفي روحي، وفي

خَلْقي، وفي خُلُقي، وفي أهلي، وفي محياي، وفي مماتي، وفي عملي، فتقبل حسناتي، وأسألك الدرجات العلى من الجنة آمين».

«اللهم جنبني منكرات الأخلاق، والأهواء، والأعمال، والأدواء».

«اللهم قنعني بما رزقتني، وبارك لي فيه، واخلف عليّ كل غائبة لي بخير».

«اللهم حاسبني حساباً يسيراً».

«اللهم أعنا على ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك».

«اللهم إني أسألك إيماناً لا يرتد، ونعيماً لا ينفذ، ومرافقة محمد صلى الله عليه وسلم في أعلى جنة الخلد».

«اللهم قني شر نفسي، واعزم لي على أرشد

أمري، اللهم اغفر لي ما أسررت، وما أعلنت، وما أخطأت، وما عمدت، وما علمت، وما جهلت».

«اللهم إني أعوذ بك من غلبة الدين، وغلبة العدو، وشماتة الأعداء».

«اللهم اغفر لي، واهدني، وارزقني، وعافني، أعوذ بالله من ضيق المقام يوم القيامة».

«اللهم متعني بسمعي، وبصري، واجعلهما الوارث مني، وانصرني على من يظلمني، وخذ منه بثأري».

«اللهم إني أسألك عيشة نقية، وميتة سوية، ومرداً غير مخز ولا فاضح».

«اللهم لك الحمد كله، اللهم لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لمن أضللت ولا مضل لمن هديت، ولا معطي لما منعت

ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرب لما باعدت، ولا مباعد لما قربت، اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك، اللهم إني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول، اللهم إني أسألك النعيم يوم العَيْلة، والأمن يوم الخوف، اللهم إني عائذ بك من شر ما أعطيتنا وشر ما منعتنا، اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين، اللهم توفنا مسلمين، وأحينا مسلمين، وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين، اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك ويصدون عن سبيلك، واجعل عليهم رجزك وعذابك، اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب؛ إله الحق آمين».

«اللهم اغفر لي، وارحمني، واهدني، وعافني، وارزقني».

«...واجبرني وارفعني».

«اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وأرضنا وارض عنا».

«اللهم أحسنت خَلقي فأحسن خُلُقي».

«اللهم ثبتني واجعلني هادياً مهدياً».

«اللهم آتني الحكمة التي من أوتيها فقد أوتي خيراً كثيراً».

الفِهرِس

مقدمة ٧

معنى الحج..... ١٠

تعلّق القلوب بالحج!..... ٢١

أثناء الرحلة..... ٣٢

في الميقات.. ..... ٤٢

ما أشد الشبه!..... ٤٦

وأقبلنا على البيت العتيق.. ..... ٥٨

توقير الكعبة.. ..... ٦٩

وعلى الصفا..... ٨٦

ودنا اللقاء.. يوم التروية.. يوم الاستعداد..... ٩٢

إلى عرفات..... ٩٤

عرفات.. والحشر ٩٧

الحج عرفة..الدعاء هو العبادة..... ١١٨

الجبار.. ويوم الجمع.....١٢٣
السلف.. وعرفة.....١٢٥
وارتحلنا من عرفات إلى المزدلفة.....١٢٨
رمي الجمار والبلاء الصعب.....١٣٢
سر التكبير.....١٤٧
الهدي.. لمن له هدي.....١٤٩
افعل.. ولا حرج.....١٥٦
وعدنا.. للبيت العتيق.....١٥٩
والمُنى في مِنى !!.....١٦٤
رحماك رباه من الوداع.....١٦٧
أدعية مختارة.....١٧٩